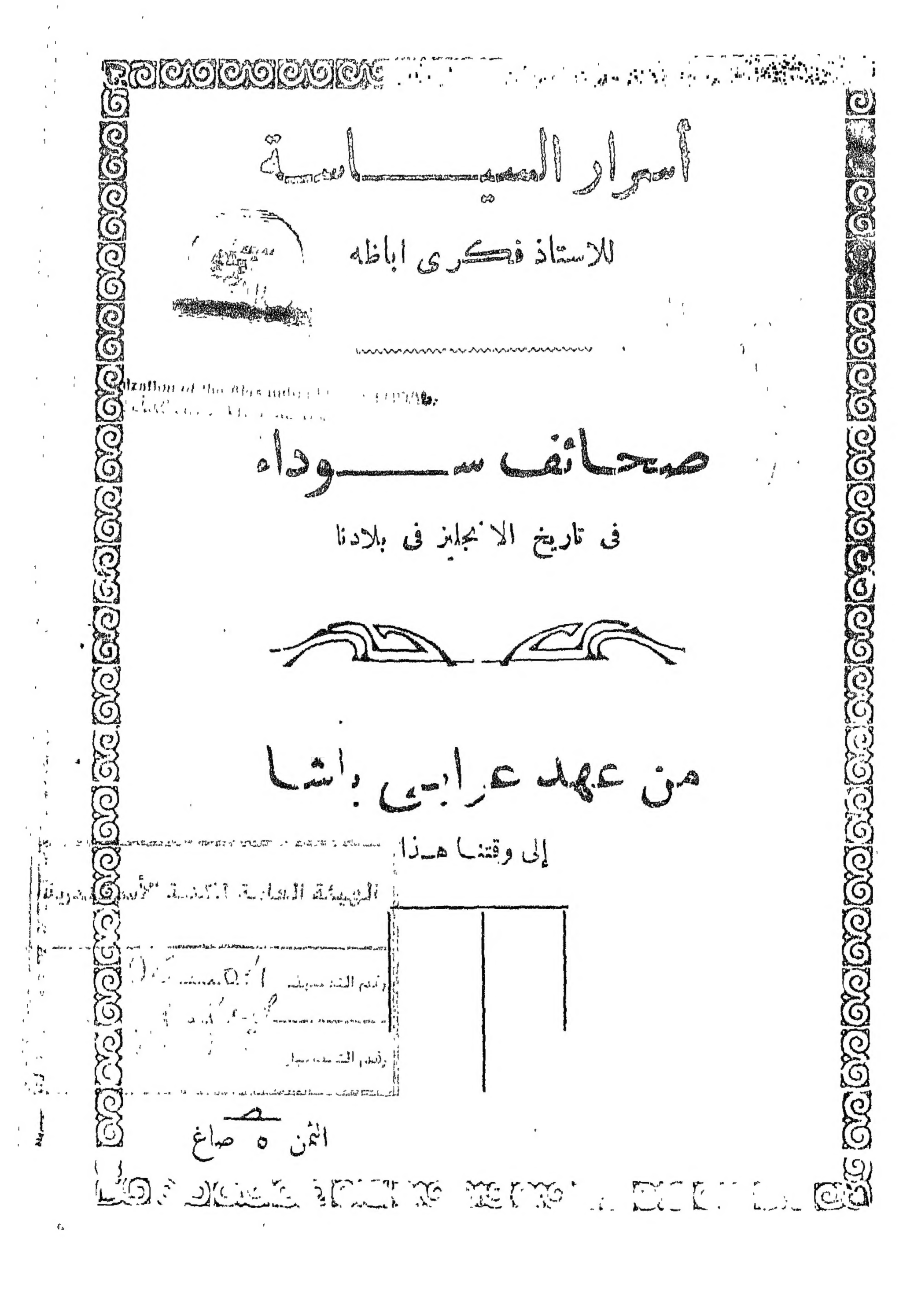


أسرار السياسة

للاستاذ فكرى اباظه

صحائف سوداء

فى تاريخ الانجليز فى بلادنا

من عهد عرابى باشا

إلى وقتنا هذا

الثمن ٥ صاغ

الاهـداء

اعترافاً بالجميل . وتقديراً للفضـل . وإقراراً بالمعروف . نهـدى هذا الكتاب الى مصر العزيزة . الى نيلها وسودانها وملحقاتها . الى الشهداء والضحايا الذين تركب من عظامهم ثرى هذا الوطن طبقات فوق طبقات : طالبة إنصافها بانقاذها من رجس الأجنبي . وتطهيرها من دنس الغاصب . الى المتقين الذين هم بحق الوطن يؤمنون . وحدوده وفاق الطبيعـه وسلطان التاريخ هم يقيمون . وفى هذه السبيل مما رزقهم الله ومما يشتهون وقاية لهذا الحق واحتفاظاً به مصوناً رابياً نامياً هم ينفقون. والذين يسلمون بما شرعه الامم والقرون والمدائن والقرى المصـلحون من عظات. وبالتجاريب القوميـة هم يوقنون . وبحساب ربهم يثقون . وبالآخرة يصدقون .

وترحيباً وتكريماً. نهديه إلى قوم عتوا عن أمر ربهم . وخانوا عهـد وطنهم . وقالوا فى تعال واستكبار . وفى غير استحياء ولا استعبار . إنا بالذى آمنتم به كافرون . ولما أخذتهم الرجفة . وأصبحوا فى ديارهم جاثمين . وجاءتهم البينة . فكشفت ماران على قلوبهم . وأضحوا على مافعـلوا نادمين . تابوا الى الله . وأنابوا الى الوطن.

وهدى ورحمة وذكرى نهـديه فى النهـاية الى الذين أشركوا بالوطن . وزين لهم الشيطان قتل أمة آمنة مطمئنة عزلاء ليردوهم . والذين يحرفون الحق من بعد مواضعه . عسى أن يزكى الله قلوبهم . ويقيهم فى الدنيا خزياً . وفى

الآخرة عذاباً عظيما . ﴿ إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً .
ولهم عذاب أليم . ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم . إنما
نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين . ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم
عليه حتى يميز الخبيث من الطيب . وما كان الله ليطلعكم على الغيب . ولكن
الله يجتبي من رسله من يشاء . فآمنوا بالله ورسله . وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم
أجر عظيم ﴾ .

أحمد وفيق

تنبيه

وضعنا من هذه المذكرات حتى الآن ثلاثة الآف صحيفة من القطع الكبير .
ولقد كنا اعتزمنا أن نصدرها في أجزاء كبيرة الحجم . ولكنا ارتأينا
مراعاة للظروف الحاضرة وتمكيناً للقراء من الاطلاع أن نذيعها أجزاء
عديدة في هذا الحجم الصغير .

مناسبة الاصدار

ليس لى أن أنهز ذكرى معينة ، أو أتحين واقعة خاصة لاصدار كتابى « فى سبيل الوطن » . مادام عنوانه قد انطوى على معنى الجهاد . وما دامت صفحاته أشعة وهاجة ترسلها شموس أشرقت فى تاريخ مجد القوميات . ومادام الاحتلال البريطانى لايزال فى وادى النيل جاثماً .

ان كل يوم من أيام الاحتلال مناسب لأصدار هذا الكتاب . ففى كل يوم ذكرى استشهاد . بل فى كل يوم تستشهد مصر مع غروب الشمس لتبعث حية مع شروقها . وإذا كان الانتحار الادبى قد حل محل الاستشهاد اليومى فى السنوات العشر الاخيرة . قضاء لأحط الامانى . وتحقيقاً لأبغض المصالح فى أيام المحن والكوارث العامة . فان فى هذا الانتحار الادبى معنى الاستشهاد مادام فيه شق الطريق لتطهير يفضى إلى تعرف حقيقة الرجال الذين يستطيعون فى النهاية وبعد الصبر الجميل على الاذى والنوازل أن يعملوا للانقاذ العام بتضحية مصالحهم وصحتهم وذواتهم وأموالهم والثمرات . غير مستبقين إلا محمة الوطن ومحمتهم بالتبعية للسمعة العامة .

فأصدار الكتاب هو إذن بمناسبة الاستشهاد اليومى العام فى سبيل المصلحة القومية

ولما كانت هذه هى المناسبة . فقد حق علينا أن نحيى شهداءنا فى شخص سيد الشهداء . وأمام الزعماء الاطهار « مصطفى كامل باشا » . قائد النهضة المصرية النزيهة التى لم تعرف تراجعاً عن المبدأ . ولا نكثاً فى العهد . ولا نكولا عن اليمين . ولا ادباراً عن اليقين . ولا تساهلاً فى عقيدة أو دين . ولا زعزعة فى رأى . ولا توانى فى هدى . شرع مجاهدة الانجليز فلم يلو أو ينء عن صراطه . وسن مناهضتهم فلم يحد عن خططه واشراطه . فلقد ناصبهم العداوة

منذ نزل الميدان يتولى قيادة مجالدتهم. حتى هبط جسمه ساحة القبر . وصعد روحه إلى ديار الحق .

وفى هذا اليوم يخلق بنا أيضا أن نحي من حول مصطفى هالة الشهداء . الذين أحاطوا مبعث الايمان الوطنى أطارا انتظم لطيف سليم باشا . وعلى فخرى بك . ومصطفى نجيب بك . وعمر لطفى بك . وحارس باشا . وحسن رضوان باشا . ومحمود انيس بك . واسماعيل الشيمى بك . ومحمد فريد بك . وعبداللطيف الصوفانى بك ومحمود [illegible] بك . واسماعيل حافظ واحمد لطفى بك . ومنصور رفعت .وعلى فهمى كامل بك . ومحمود ناشد بك وأمين الرافعى بك . وعبد العزيز جاويش بك واحمد وجدى . واسماعيل لبيب بك . وأحمد فؤاد وغيرهم من الجنود المجهولين الذين تألقوا فى سبيل التضحية وسموا انقاذا للوطن وحقوق الوطن .

أن الوطنيين الابرار ليدركون فى كل يوم وهم يستشرفون هذه الخيالات النورانية مدى تلك السماء الشاسعة الاغوار تغلغلت صعدها فى أعماق الانسانية وأصطلح العالم على أن يسميها الروح الوطنية .

ففى كل يوم يرى المخلصون فى كبد القبة الزرقاء نورا تركز ليرسل الينا إشعة قوية لاتقربها يد . وإنما تحسها . ولا يمسها جسد . ولكنه يشعر بها . ولايدركها عقل . وأن مثلت أمامه . ويقصر دون تعريفها النقل . وأن تجسدت قدامه . ذلك أنها تنفذ إلى القلب مباشرة . لتخاطبه بلغة العاطفة . وتحاضره فى لهجة الاحساس . أنها أشعة فى الداخل ساطعة . وفى الخارج لامعة . يراها الوجدان دائما فى ريعان الشباب . لا تبلى ولا تتجدد . غضة الاهاب . ناعمة خلا ملمسها من التجعد . ساحرة كانفاس الاحباب . آيتها الانتشار والتمدد . تقبل دائما ولا تدبر . وإذا انكمشت فلتستجم حتى تكر . دون أن تتراجع أو تفر . أبدا متوثبة لاداء الواجب فى دأب .

هذه آية «مصطفى كامل» والذين تتأوا حوله رصائع فى محيط الشهداء. إنها معجزة هـذا العصر الذى أمسى فيه للرذيلة جلال. وللنقيصة تقدير واجلال. إنها الطير فى وكره. يفيض حنانا ورحمة وعطفا. على الابناء المخلصين. والعصر فى شجره. يتدفق حياة ونشاطا وثمرة. للاوفياء المتقين. والمهل فى أعماق البراكين. يغلى ويزمجر. ليندفع وينصب على العاقين والشياطين. ويطهر الجو من أدران الفاسقين. وينشر الخصب والبركة. بين البررة المهضومين. يخرج كما يخرج الحق من الظلام. ويعرق كما يعرق الظلام من الغضب. نجهل حقيقة هذا الشعاع ولكنك تراه نوراً فى كل مكان ومن العبث أن تحاول مسه فى أى آن.

فتحية إلى الشهداء فى يوم ذكراهم المستمر. وسلاما على من كانوا ولا يزالون الشمس فى حرارتها وقد جلسوا على عرشهم يطلون على صحراء الامام والمجاورين. يرقبون شئون امبراطوريتهم. ويتجلون من الافق على رعيتهم. والكل ينتعشون بنظرتهم. ويتزودون نسيمهم. ويستنشقون نفحات حفيفهم. فاسطعوا ياسادة الاقوام. والمعوا وازدهوا فوق الآنام. فوادى النيل قصركم. وأهله حاشيتكم. وسماؤه وسادتكم. وأرضه تنبسط على أعينكم وتدور. لتسدلوا عليها من سلامكم بهجة الخضرة والنور. وروعة النضرة والسرور. وتسبلوا عليها ثوبا من جلال القوة والمقدرة. بينما الزمن يجرى على مرءاكم خاشعا. وإذا ما دنا منكم هرول راكعاً. ضارعاً أن تنتصفوا له من نفسه. وأن تؤاخذوه على جريرة تلبيسه ويأسه. وتقتصوا منه لجريمة تردده. وإبلاسه. وخبثه.

الزمن! إنه هذا الجيل الذين أطاعوا الغاوين. ولما برزت لهم الجحيم. ودنوا من حافتها ليكبكبوا فيها مع المبلسين. طمعوا فى أن يغفر الوطن خطاياهم. وأن يلحقهم بالصالحين. وأن يجعل لهم لسان صدق فى الآخرين

وما تزلف الجنة إلا للمتقين الذين يقولون بألسنتهم ما في قلوبهم .

الزمن ! إنه هذا الجيل الذى يسعى إلى الشهداء ويخفد . وإذا ما تلقى عليهم أقسى الدروس عاد أدراجه وفي السير جد . فرما لايلوى على شيء . هلوعاً ومن خلفه جلال الجبهة الهادئة الساكنة يفيء له الدياجير . ويكشف له بمصباحه عن المصير . في مقدرة لاتجاريها بين الانسانية مقدرة . ذكراها نوار . وغيابها ليل .

فيامصدر أنوار القلوب ! لقد فسدت النفوس . وتحللت الاخلاق . وأصبح يطمع في الناس . من عاف الطين والذهب بالامس : وأمسى في مصر شبان وشيوخ ورجال ونساء يحتضنون الجريمة . ويتخذونها رأس مال يحاربون به الامة في كرامتها وشرفها وسمعتها . عدل لقمه يتبلغونها . وقابل حصاد يتمرغون في قذارته . فنزلوا بالاخلاق إلى أحط دركات الفساد المؤدية بالفرد والجماعة إلى جعل عنصر الاجرام مقومات الحياة ودعائم الشرف وتكآت الكرامة . وخيوطا صالحة لتكوين انسجة الضمير واصطناع الياف الذمة . وكل ذلك راجع إلى الاستهانة بحق الامة . وجعله موضع مساومة على المناصب والوظائف والحكم ووقف المنافسة على مايرمى اليه هؤلاء الذين يغتصبون المناصب . ويحقدون على الوطن ويحنقون « وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء . ألا انهم هم السفهاء ولكن لايعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا . وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا أنا معكم إنما نحن مستهزءون الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون . أولئك الذين إشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لايبصرون صم بكم عمى فهم لايرجعون » .

يامصدر أنوار القلوب ! لقد انصرف غالبية الأمة عن صراطكم السوى وخرجوا على مبادئكم. وجروا مصر إلى الفحش فى الوطنية. وإرتداء رث الأثواب القومية. وامتهان الكرامة العامة. ولقد ذكرنا هذا الموقف بموقف « كورديليا » فى رواية الملك « لير » فبعد أن غدر بها هذا الملك. وانتزع منها حبه. وسلبها نعمه. وحرمت طيبات الحظ هجرها خطيبها الدوق ده « بورجونيا » ولكن ملك فرنسا خاطبها قائلا ! « أن بؤسك يا كورديليا الحسناء قد جعلني أراك أغنى منك فى أى وقت مضى. وعزلتك قد رفعت من قدرك. ومأساتك قد ضاعفت حبى إياك. فيما أنهم هجروك والقوك فوق الثرى فاسمحى لى بان أرفعك فى إحترام متأجج. ولتكونى ملكتى وملكتنا وملكة رعايانا وملكة فرنسا الجميلة »

لقد أحب الحزب الوطنى « كورديليا ». أحب مصر المغلوبة المنكودة المنكوبة المضطهدة عندما هجرها أبناؤها. وطلقها زعماؤها. وخان عهدها قادتها. فعقد عليها بدافع شقوتها. والعمل على راحتها وطمأنينتها. وفى سبيل انقاذها احتقر مظاهر الزواج الفنى. وازدرى بالمناصب. واشمأز من الطين والعقار. وطفق يعزيها بأجمل أناشيد التشجيع. ويسليها باعذب ترانيم الحنان والعطف المتدفق من أعماق قلبه القوى قوة قلوب الفرسان فى هجماتهم. الرحيم رحمة قلوب أحن الوالدات على فلذات أكبادهن.

ولكن سوء الحظ قد انقض على رجال الحزب الوطنى فانهكهم واضطهدهم وشردهم. فما كان من « كورديليا » إلا أن وجدت سرير الشقاء والآلام سريراً قاسياً فقالت للحزب الوطنى ! « تألم وحدك ولا ذهبن إلى حيث الذهب الوفير والفراش الوثير. حيث يملو جبينى رياحين النصر وأكاليل الظفر والفخر » ولكن لنرث لحالها. ولنغفرها ولا نلعن الايام التى همنا فيها بحبها ساعة إذ

تجملت بدموعها . ولنصفح عنها . فقد أضلت فضلت . وخدمت فاخدعت وضاعت ثقتها . وآن لها أن تندم على مافات . وتتدبر ماهو آت . ولا زلنا على موعدها فى سبيل خدمتها وخدمة الانسانية الجريحة الدامية . ولتعلم مصر أن الحزب الوطنى « كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما »

يامصدر أنوار القلوب ! دمتم ودامت أنوار ايمانكم تنساب أمطارا ذهبية تهطل فتتحال خيوطها على أجنحة الهواء . فاذا بها ألوان فصول السنة اكتستها الغبراء . لتجعل أنصاركم أقوياء متنجين . وجوههم نضرة . لا ترهقهم فترة . كالاشجار كستها الطبيعة أثوابها الخضراء . وأولتها ثمارها الفيحاء .

يامصدر أنوار القلوب ! إقذفوا باشعتكم على الذين ناصبوا مبادئكم العداء انتصارا لمصالحهم الخاصة . أقذفوها حولهم من كل مكان حتى تكون « دشاً » ساخناً يطهر الادران . ولتخلعن عليهم جاذبية تقتاد اليهم المبادىء الصادقة كتلك الجاذبية التى تخلعها السماء على الرياحين والورود . ترفا من الازياء والالوان . حتى تتسابق المبادىء اليهم فتلبسهم . فلا يتجشمون نصباً . وتغرو نفسها بهم فلا يتكبدون فى أعتناقها تعبا .

يا أيتها الارواح الكريمة ! تناولى ريشة الفن . وصورى هؤلاء الذين زهدوا فى الحق . وطمعوا فى الباطل . صورى لهم وفاق مقتضيات الحال . وما أصبحت عليه حاجة السادة « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » . صورى لهم خلعة سنية . وحلى بالذهب والفضة أجساداً تعشق الذهب والفضة . ولوحى لهم بلوحات براقة أخاذة من أخف المعادن وأغلاها لمن يعبد أخف المعادن وأغلاها . وأسبغى ثوبا من البرد على الذين يريدون

أن يكونوا قرنفلة بيضاء . أو كوكباً في عين دعجاء . واسبلي معطفاً مرصعاً على الذين يرغبون في أن يكونوا وردة حمراء . وجملي كبار المطامع كما جملت القدرة الطاووس . بأبدع ما صنع البارى من جماع الالوان . ليختالوا اختيال العروس . يعجب برشاقتها الفنان . وانسجي الاعاظم ثوبا من خيوط الفجر . يباهون به الكواعب الحسان . واحتفظي لنا بزرقة السماء علنا نتمتع يوما بها تنبثه الزرقة من صحو ينعكس ضياؤه على سطح البحر الهادىء فتتمثل أمامنا طيبة القلب . والا فارغي ضياءك على القلوب ينعشها . ويسلك الحماسة فيها ويحييها ويهلن للوجود . معنى الخلود . «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه . ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا . وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن . ومن شاء فليكفر انا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه . بئس الشراب وساءت مرتفقا»



« ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك ومايضلون إلا أنفسهم . وما يضرونك من شيء . وانزل الله عليك الكتاب والحكمة . وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما » وصلاة وسلاما على من أنزل عليه « فلما انجاهم إذاهم يبغون فى الارض بغير الحق . ياايها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم الينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون. إنما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى إذا أخذت الارض زخرفها وأزينت . وظن أهلها أنهم قادرون عليها اتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس. كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » « محمد » صلى الله عليه وسلم. سيد المرسلين . وخاتم النبيين . وأمام المجاهدين . أقام صراط الخلود على أن « من فى الدنيا ضيف . وما فى اليد عارية . والضيف مرتحل . والعارية مؤداة» وسن قاعدة المجد على أساس حديثه الشريف : « أحذروا الدنيا وحلاوة رضاعها لمرارة فطامها » . ورضوان الله على صحابته والزاهدين فى حطام الدنيا« والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله . والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم » أما بعد فهذه «فاتحه » كتابى «فى سبيل الوطن »وهو كتاب أخرجه للناس هدى ورحمة. فى عدة اسفار جمعت مذكراتى ولا سيما ما دونته منها خلال حياتى السياسية التى بدأت فى سنة ١٩٠٦ . وانى

لا نشر هذه المذكرات تلبية لنداء الذين كرثتهم المحنة الحاضرة . وأجابة للخلق الوطني القويم ناشدني الاستمرار في جهادي بعد أن أوصدت أمامي سبل النشر الاخرى . والفكرة القوية لها أثرها سواء أكانت أذاعتها بالصحف أم المجلات أم المنشورات أم الكتب مادامت التربة صالحة لانباتها . والجو ملائماً لترعرع نبتها . والله أسأل أن يجعل هذا الكتاب مصحة للاستشفاء يجد فيها المصاب بالسل الوطني غذاء يساعده على المقاومة . ويعثر فيها المريض بالاضطراب الذهني على دواء يشفيه من مرض القيء العقلي والمغص المخي ويتفقد فيها المتعب ضالته من الراحة ليسترد بها الاتزان الفكري

سبب الاصدار

ان اسم كتابي « في سبيل الوطن » صريح في الدلالة على سبب وضعه والغاية منه . فالسبب واحد . والغاية واحدة . كلاهما لا يتجزأ . ولا ينتقص ولا يزاد عليه .

إن السبب هو الاحتلال . والغاية إجلاء الاحتلال . بتدعيم الخلق القومي وانماء الشعور الوطني والحرص على إطراد هذا النماء

للانجليز خطة مرسومة نحو مصر . ولقد طفقوا يحاولون تنفيذها منذ سنة ١٧٧٥ وفي كل دفعة كانوا يفشلون فيها يعيدون العمل لانجاحها كرة أخرى . وفي شكل آخر . ولكن جوهرها هو هو . واحد لا يتغير ولا يتبدل وهو ضم مصر إلى انجلترا بارادة مصر وإقرارها .

ولقد إعتادت انجلترا في كل جيل أو مايقرب من جيل — مع احتمال الزيادة والنقص — أن تقطع مرحلة من هذه الخطة . فان ركزت أقدامها عندها وثبتت بدأت مرحلة اخرى بعد إنقضاء هذه المدة . وعلة انقضاء الثلاث

والثلاثين سنة واضحة هي العمل على طبع الجيل القادم بطابع خاص .

ففي سنة ١٧٧٥ ، أبرمت انجلترا مع أبي الذهب معاهدة خاصة بمرفأ السويس ورسو السفن الانجليزية هناك . ولما كان ثغر السويس أو برزخ السويس او قناة السويس هي مصر . بل وادي النيل والاماكن المقدسة . فان خليفة المسلمين أصدر في ذلك الحين فرمانا يقضي ببطلان هذه الاتفاقية . فخضعت انجلترا وقتئذ لقوة السلطان وشوكته . ولكنها لم تقلع عن غاياتها . ولم تستأصل جرثومة الطمع في مصر من اعماقها . بل تحينت الفرصة وتربصت بمصر الدوائر حتى تقتنصها . فاذا ماوقعت بين أيديها لاتفلتها .

ففي سنة ١٨٠٧ — ولايمكن سياسياً أن تكون مطاردة بونابرت في مصر تنفيذاً لخطة احتلال مصر — أنزلت انجلترا جنودها في الاسكندرية بعد أن أطلقت مدافعها على الابراج فهدمتها . وأبرمت معاهدة حماية مع حاكمها . كما أنها كانت قد عقدت مثل هذه المعاهدة مع البرديسي حتى يتم لها خضوع مصر . ولكن الشعب المصري أكره الانجليز بعد معارك رشيد وغيرها من المعارك التي وقعت في البحيرة على الفرار حتى ركبوا البحر وفي طيات أعلامهم آيات الخزي والعار . ولقد أبرموا في ذلك الحين معاهدة مع وزير خارجية مصر ولكنهم مع ذلك لم ينتزعوا من نفوسهم الغل الذي أنبته غلب المصريين وانتصارهم عليهم . وجعلت القرحة تنز كلما ذكروا الطعنات التي توالت على أقفيتهم بين رشيد والاسكندرية . ولذلك رأيناهم يشتركون مع روسيا وفرنسا في تدمير الاسطول المصري غيلة وخيانة في معركة ناورين في عشرين أكتوبر سنة ١٨٢٧ . ثم قاوموا محمد على فيما بعد بمناسبة معاهدة كوتاهية سنة ١٨٣٣

وفي سنة ١٨٤١ أتمت انجلترا شطراً كبيراً من مهمتها . اذ أضعفت مصر

إضعافاً كبيراً بمعاهدة لندرا وما تلاها من فرمانات . ولما توفي ابراهيم ومن بعده محمد على ، هدمت مجدهذين البطلين بيد عباس الاول . ثم حصلت على امتياز سكة حديدية بين الاسكندرية والسويس وقاومت فكرة حفر قناة السويس . ثم سلبت من قيصر روسيا فى سنة ١٨٥٣ . ومن نابليون الثالث سنة ١٨٥٧ تصريحاً بالاستيلاء على مصر . وفى سنة ١٨٦٦ أعدت حملة لغزو مصر ولكنها عادت أدراجها وهى فى منتصف الطريق بمناسبة الهدنة التى عقدت بين ألمانيا والنمسا . ثم حالت دون إعلان استقلال مصر فى سنة ١٨٦٩ وفى سنة ١٨٧٢

وفى سنة ١٨٧٥ بطشت انجلترا بمصر البطشة الادبية الكبرى . إذ أوفدت المستر كيف لمراجعة حسابات المالية المصرية . واشتركت فى صندوق الدين . وفى نوفمبر من تلك السنة أتمت الصفقة الخاصة بشراء أسهم الحكومة المصرية فى شركة قناة السويس فتم لها الفتح الادبى . وتلا ذلك العمل لتثبيت هذا النفوذ وتحويله إلى نفوذ مادى . ثم جاء جوشن فى مهمته . وقرر مؤتمر برلين فى جلسة سرية بايعاز بسمرك الموافقة على المراقبة الثنائية قصداً إلى قيام الخلاف بين انجلترا وفرنسا فى مصر كما قام بين المانيا والنمسا فى شلسويج هولشتين . وأعقب ذلك نزول الطامة الكبرى . إذا احتلت انجلترا مصر فى سنة ١٨٨٢ فاستحال النفوذ الادبى الى نفوذ مادى حيث أمكنها رغما من اتفاقية الاستانة أن تحاول املاء ارادتها على الدول فيما له مساس بمصر أو بموقف الاحتلال البريطانى فيها . وجعلت من مفاوضاتها مع الدول قصداً إلى الجلاء عن وادى النيل كما جعلت منها مع احزابنا الحكومية خرشوفة تنتزع منهـا ورقة أو عدة ورقات فى كل دفعة . وناهيك بذلك التحفظ الذى علقت عليه نفاذ معاهدة سنة ١٨٨٨ وهو الخاص بعدم التعرض لجيش الاحتلال فى مصر . ثم اشتراط عودتها إذا اختل الامن فى مصر بعد جلائها عنها . وهو الشرط الذى اخفقت من أجله اتفاقية درومو ندولف . أضف

إلى ذلك كله تصرفها فى الاراضى المصرية بعد أن أرغمتنا على ترك السودان. اقتطعت من جسم مصر اجزاء شاسعة . اجرت بعضها وتنازلت عن ال الاخر مع تعليق رده إلى مصر على شرط أن تصبح قادرة على حكم نفسها بنفسها استعادت السودان باسم النا ودمائنا وجعلته شركة بيننا وبينها على أن يكون على الغرم فيها ولانجلترا الغنم منها . ولقد كانت المعاهدة الخاصة بتسوية السفلى (السودان) بين انجلترا وفرنسا هى ابدأ تصفية الحساب بين ه الدولتين .

وفى سنة ١٩٠٤ تمت تصفية الحساب . وأمضت فرنسا وانجلترا الا الودى . فانطلقت يد انجلترا فى مصر رغما من أن وضع القضية الم لم يتغير .

اكتسبت انجلترا فى مصر هذا المركز . ولكنه لم يرض كل مطامع فاعتزمت أن تعمل على توطيد أقدامها وترسيخ أساس استعمارها . إذا ماجاء أجل الاتفاق الودى فى سنة ١٩٣٠ استطاعت أن تواجه الدول واقع . ولكن الحوادث والحظوظ سبقتها إلى تحقيق غايتها . وخيانة الظ والسياسة شدت أزرها . فقد وقعت الحرب فى سنة ١٩١٤ . وحسرت ا الثام عن حمايتها المقنعة وجاءت بحماية صريحة قيل وقتئذ أنها لضرو حربية . وهى حماية لم ترفع حتى الآن فعلا وأن تبجح البعض فى القول رفعت . وأن انجلترا كفت أيديها عن التدخل . إذ القانون الدولى وجود الحماية نظريا . والتدخل السرى يؤيد وجودها العملى فعليا . وها دليل أقطع على وجودها من أننا لانعمل عملا إلا إذا راق انجلترا ؟

وها هو جيل جديد يطل علينا . فاذا اعددنا لمقاومة ماعسى أن تقو به انجلترا فى مستهل الجيل القادم ؟ أمن المحتمل أن تفاجئنا بما يصرف عن غايتنا كتسيير حملة لا كتساح الحبشة مثلا تحقيقا لمشروع غلادستو كما أنه من المحتمل أن يفاجأ العالم بكارثة حرب عالمية جديدة . فهل نحن

قوة نقاوم بها الاحتمال الاول . أو على اجماع يمكننا من انتهاز فرصة الاحتمال الثانى لانتزاع استقلالنـا وتدعيمه ؟ ليس الامر بداع إلى التردد والحيرة أو التشكك . فالموقف واضح . والاستعداد جلى . ولا جواب إلا أننا اليوم لعاجزون عن القيام بأى حركة كريمة شريفة. فما هو السبب ؟

محنة اليوم

إننا اليوم فى محنة ، وهى محنة نفسـية خلقية عقلية عصبية عامة . ولقد تنبأ الحزب الوطنى بها منذ الناشئة الاولى لتكوين الوفد .

أبان الحزب الوطنى حقيقة المصير الذى ألنا اليه اليوم ساعة إذ قابل سعد السير ونجت فى ١٣ نوفبر سنة ١٩١٨ وتنازل له عن مصر مقابل تنظيم للحماية على قاعدة منح بعض امتيازات داخلية للامة المصرية . وأبانه ساعة إذ خطب سعد فى الجمعية الجغرافية ، وساعة إذ أصدر الوجهاء ومن فى حكمهم منشورهم الذى سجلوا فيه على مصر مسئولية الثورة عند ماعين الفيلد مارشال اللنبى حاكما مطلقاً على مصر والسودان فى مارس سنة ١٩١٩ . وإبانه بمناسبة المفاوضات مع ملنر وفى كل مناسبة أخرى سواء بمنشوراته أم خطبه أم كتبه أم تقاريره أم صحيفة اللواء المصرى والاخبار أم باقلام كتابه ورجاله فى كل عهد من عهود الوزارات الحزبية . وكذلك أبانه نوابه من فوق منبر البرلمان .

ولقد علل الحزب الوطنى هذا التنبؤ أو التوسم بضـعف الزعامة ضعفاً سياسياً خلقياً عقلياً عصبياً . وعجزها عجزاً مطلقاً عن فهم الآثار المترتبة على قانون التوارث المصرى العام . حتى انتقلت العدوى من الزعامة الى الامة. فأصبحت

مترددة حائرة متشككة لا تستطيع حكما ولا استقراراً . لان الزعامة تسلط عقل نصي على أنصاف عقول أو على لا عقول أو على عقول. وانصاف عقول لاتفهم أنها في هذا المستوى . ومتى انقاد كل ذلك الى الضعيف العاجز سياسة وخلقاً وعقلا وعصباً . انطبع بهذا الطابع وتخلق بهذا الخلق وقاده ذاك العقل وحكمه هذا العصب في ظروف ومناسبات خاصة إن لم يكن على التوالى .

واليوم نرى المريض الذى كان بالامس موضع علاجنا يتخيل أن الأمة أصل الداء . والحكمة في ذلك استعداد المرض عليه . والمريض هنا ليس حزباً حكومياً خاصاً وانما جميع الاحزاب المستوزرة . لاننا لا نزال نعتبر الوفد وحدة قائمة لم تتصدع في أى وقت. ولم تتشقق لاى شهوة أو مصلحة . لان شهوة الجميع واحدة . ومصلحتهم واحدة . هى إذلال النفس مقابل مناصب الحكم . واذا كان هناك خلاف بين الاحزاب قائما في الوسيلة المؤدية الى استبقاء الحكم . فالبعض يركن في ذلك الى الاعتماد على الدهماء وهم رجال الوفد. والبعض الآخر يعتمد على التشريع وهم الاحرار الدستوريون والاتحاديون والشعبيون

وفى الحق أن سعد زغلول لم يمت ولا يزال يجمع بين الأحزاب المستوزرة. لأن الوفد لم يتحول عن سياسته. والاحرار الدستوريين الذين خرجوا أول من خرجوا على الوفد يطبقون فكرته وأن تصوروا أنهم هيئة قائمة بذاتها. والاتحاديين الذين تكامل عقدهم ممن انفرطوا . من هنا وهنا لك . ينفذون خطة الوفد . والشعبيين الذين تجمعوا ممن قام هم تحقيق المصلحة الخاصة أو بعضها ايام انتسابهم للاحزاب الاخرى يرسون بما رسمه سعد ورشدى وعدلى وسعيد ويوسف وهبه ويحيي ابراهيم وتوفيق نسيم وزيور وثروت ومحمد محمود والنحاس. ولذلك فلا يجوز أن يتراشق هؤلاء الاحزاب المستوزرة بتهمة الاعتماد على الانجليز ولا أن يعير هذا ذاك إذا هو حرص على مصلحته الخاصة مادامت سياسة

الجيم واحدة هي القناعة بفتات الموائد البريطانية والزهد فيما لا ترضاه انجلترا.

. وإذا كان المقام لا يتسع لكل ما أوردته الصحف الوفدية والحرة الدستورية والاتحادية والشعبية والمحايدة من آراء خاصة بقانون التوارث القومى . إلا إننا نورد جملة قالتها السياسة في عددها الصادر بتاريخ ٣١ يناير سنة ١٩٣٣ بمناسبة حادث تبشير اهتمت له الصحف جميعا فى هذه الاونة. ولو أنه وقع فى عهد كانت الظروف السياسية تملى على القادة الدستوريين بتطلب التسامح فى العقائد الدينية لما سمعت غير صوت الحزب الوطنى يتردد فى جوانب مصر

قالت السياسة بعد كلام طويل

« ولو أننا أستطعنا أن نوجه نفوس ناشئتنا فى المدارس والكليات والمعاهد غير هذه الوجهة الدنيا وخلقنا فى نفوسهم الايمان بالحق وجذوة المثل الأعلى المقدسه لانشأنا فى جسم هذه الامة روحا قويا بدل هذا الروح الخامل الخامد الذى ما أضعف اليوم ما ينبض . ولكننا مقيدون بماض ثقيل ونفوس ضعيفة ووضع سياسى يستعدى الضعفاء على الاقوياء والمتهدمة أرواحهم ونفوسهم على الذين ملأ الله قلوبهم بالحق إيمانا . فحسبنا الله فى أولئك جميعا ونعم الوكيل »

* * *

هذا وأشد من هذا قد قيل بمناسبة تنصير فرد . لأن الوفد والاحرار الدستوريين خارج الحكم . ولو أن للعدل أثارة فى نفوس هؤلاء الكتاب. ولو أن العقل المتزن الصحيح هو الذى أملى حقا هذا الدفاع على هذه الاقلام لكان من الواجب على هؤلاء الكتاب جميعا أن يناصروا الحزب الوطنى فى موافقه لرد حملة التبشير العامة التى قامت بها انجلترا فى سبيل تنصير أمة على بكرة ابيها بانتزاع الايمان من قلوب المصريين جميعا عندما اتخذت من الاحزاب المصرية المستوزرة ابواقا للتبشير بمشروعات ملنر وكرزن وتشمبرلان وهندرسن .

وتنفيذ تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ . حتى تقضى على السنة الشريفة القائلة « حب الوطن من الايمان » لتحل وثنية جديدة محل هذا الايمان الذى لاقوام لامة دونه وهى عبادة انجلترا من دون الله استدرارا للخيرات . وقضاء للبانات . وتحقيقا للمصالح الخاصة . وحق على هؤلاء الكتاب أن ينادوا كما نادى الحزب الوطنى بمقاومة سياسة التفاهم التى قضت على آمال أمة وأنزلت بها المحنة الحاضرة التى جعلت صحيفة الجهاد تصيح صيحة الحق فى عددها الرقيم ٢٣ فبراير سنة ١٩٣١ تحت عنوان « السياسة البريطانية عدو مصر اللدود » حيث جهرت بقولها « صحنا صيحتنا فى هذا المكان تحت هذا العنوان أمس مجاهرة بالحقيقة المرة التى طالما حبسناها فى صدرنا مراعاة لما يسميه بعض الساسه (مقتضيات السياسة وترقب الظروف)

« ولكن حبل المصابرة قد طال حتى تجاوز طوله كل معقول . وحتى أفسد علينا جهادنا وأذهلنا عن قضيتنا الكبرى فى صورتها الطبيعية ووضعها الصحيح ... »

وقالت البلاغ فى عددها الصادر بتاريخ ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٣١ : « وعبثاً تتوارى انجلترا خلف تصريح ٢٨ فبراير . فباسم هذا التصريح قد تدخلت صراحة وجهراً ضد البرلمان المصرى وهو ينظر فى قانون من أخص شئون مصر الداخلية . وباسمه تدخلت وتتدخل كلما رأت فى التدخل مصلحة حاضرة أو متوقعة ... »

وقالت البلاغ فى عددها الصادر بتاريخ ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٣١ : « ان مطامع انجلترا فى مصر لا تقف عند حد درس تلقاه هذا الجيل عملياً وشاهدناه بأعيننا . ومن كان فى شك فليرجع إلى تاريخ انجلترا مع مصر فى تعويضات الموظفين ... فالنفوذ البريطانى والجيش البريطانى قائمان فى هذا البلد لمصلحة

انجلترا . ولخدمة الشعب البريطانى . والتجارة البريطانية . وهـذا النفوذ الملموس المحسوس يتدخل كلما طاب له التدخل . ويبرز كلما اقتضت مصلحته أن يبرز . ولن يعجز السياسة البريطانية انتهاز الفرص واختيار المناسبات . الخ »

فالجهاد تعترف بجريمة الوفد . انها تعترف بأن الوفد أفسد على مصر جهادها وأذهلها عن قضيتها الكبرى . وأخرج هذه القضية عن وضعها الطبيعى الصحيح .

والبلاغ تسجل جنايات الوفد وتشير إلى الحل السعيد وتدخل انجلترا فى قانون المظاهرات والاجتماعات وهو من أخص شئون مصر وتحمل على رضاء النحاس باشا بالانصياع إلى إرادة انجلترا . ثم هى تشير إلى التنفيذ شيء والاستنكار شيء عند ما تلقى على عاتق سعد تهمة الخيانة بالنسبة لتعويضات الموظفين

ان هذه الآراء هى ما كان من الواجب أن تسود العقول والنفوس المصرية قبل المفاوضات وتسمم العقول بقبولها قبول العاجز عن كل شيء والتدهور إلى أحط درك من حضيض الضعف ومهانة النفس

هذه الآراء هى ما كان من الواجب أن يتشبع بها المصريون فى الاكواخ والحقول . فى الحدائق والقصور . فى المصانع والدور . فى الخلاء والعراء . فى السهل والجبل والبيداء حتى لا يفقدوا قوتهم المعنوية التى ضعضعتها جريمة سياسة حسن التفاهم واعتبار الانجليز خصوما شرفاء معقولين خلال نيف وعشر سنوات . وهذا ما عبرت عنه الجهاد بقولها « صحنا صيحتنا فى هـذا المكان تحت هذا العنوان أمس مجاهرة بالحقيقة المرة التى طالما حبسناها فى صدورنا مراعاة لما يسميه بعض الساسة (مقتضيات الظروف) — سياسة حسن التفاهم — لكن حبل هذه المصابرة قد طال حتى تجاوز طوله كل معقول

وحتى افسد علينا جهادنا وأذهلنا عن قضيتنا الكبرى فى صورتها الطبيعية ووضعها الصحيح . . . »

ولقد قالت السياسة ضمن مانقلناه عنها آنفا : « إننا مقيدون بماض ثقيل ونفوس ضعيفة ووضع سياسي يستعدى الضعفاء على الاقوياء . والمتهدمة أرواحهم ونفوسهم على الذين ملأ الله قلوبهم بالحق ايمانا فحسبنا الله فى أولئك جميعاً . ونعم الوكيل »

وهذه كلمة حق مرقت من فم السياسة وان هى انطبقت فعلى وصف رجال السوء الذين حبسوا الحقيقة المرة فى صدورهم « مراعاة لما يسميه بعض الساسة (مقتضيات السياسية وترقبا للظروف) وطال حبل مصابرتهم حتى تجاوز طوله كل معقول . « وحتى أفسد علينا جهادنا وإذ هلنا عن قضيتنا الكبرى فى صورتها الطبيعية ووضعها الصحيح . . . . » وكذلك تنصب كلمة السياسة على من قال فيهم البلاغ ما اقتبسناه عن مقاليها الافتتاحيين الصادرين بتاريخ « ٢٢ و ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٣١ وماعنت البلاغ غير سعد والنحاس

ولكننا لانجارى السياسة فيما أوردته بالنسبة للوفد ولا نجارى البلاغ والجهاد فى حملتها المنكرة على الوفد . بل لابد من أن ندع هذه الاقوال جانبا وأن نؤيد الرأى بالحجة البالغة . فمن هؤلاء الضعفاء والمتهدمة أرواحهم ونفوسهم ؟ ومن الاقوياء الذين ملأ الله قلوبهم بالحق ايمانا ؟ وما هو هذا الماضى الثقيل الذى قيدنا ؟ وما هى حقيقته والآثار المترتبة عليه ؟ وهل هذه السبة التى دمغ بها الوفديون والاحرار الدستوريون وجه الامة صحيحه ؟

أن الرد على هذه الاسئلة يتطلب حتما أن نحلل زعامة سعد حتى نزن كفايتها ونعرف قدر مواهبها . وهذا يدعو إلى تحليل سعد من نواحى قوانين الوراثة والملابسة والوسط وبحث أتزان عقله وعصبه وحواسه وذاكرته . الامر الذى

يتطلب تفصيلا ضافيا وافيا عن معنى التشكك بانواعه الطبيعية والعلمية والفلسفية. وموضوعه وأسبابه ودوافع غايته ونتائجه وعلاجه بحيث لا نتناول تمحيص سعد الا تناولا علميا حتى اذا ما رد علينا كان الرد علميا بحتاً فاذا ما وصلنا إلى تكوين فكرة صحيحة عن زعامته انتقلنا إلى بحث الامة أيضاً من ناحية قانون الوراثة وناحية قانون الوسط والتطور والرقي والتدهور حتى نعرف أن هذه الامة من عنصر كريم نبيل مقدام يسطع جوهره السامي إذا رفع الزعيم ما علاه من صدأ الزمن وحافظ على هذا السطوع باضرام نار الحمية والغيرة في الصدور باستمرار ودأب. ونوقن أنها دائما في انتظار هذا الزعيم لشد أزره في جرأة لا نعرف تراجعاً ولا تقهقراً ولا تدهوراً إلا إذا تراجع الزعيم وتقهقر وتدهور. وهذا يدعو الى القاء نظرة على ماضى الامة البعيد والقريب سواء من الناحية الداخلية أم الخارجية. ماوقع من قادتها أو من الجاليات الاجنبية. أو من سياسة الدول على مر السنين ولا سيما منذ الحملة الفرنسية حتى مؤتمر برلين ومؤتمر الاستانة في سنة ١٨٨٢ وأيام مصطفى كامل باشا.

فاذا نحن درسنا الامة على حدة وحكمنا عليها دون أن ندرس تيار الفكرة الدولية والسياسات العالمية وحركات الشعوب وتربية الزعماء في نشأتهم وعصرهم ومدى خيالهم كان حكمنا على الامة باطلا ولغواً. نعم أننا إذا لم ندرس مصر على ضوء القرن التاسع عشر وقد حفل بالانقلابات الشعبية التي تربى في وسطها بعض ولاة مصر وحكام مصر وزعماء مصر وعادوا اليها ليعيشوا وسط الزعازع وتيارات المطامع الاستعمارية المتعارضة التي كانت تؤدي إلى مطاحنات دوت في بعضها المدافع وكادت تدوى في البعض الاخر وإذا لم نلحظ في هذا الدرس موقف مصر العلمي والادبي والخلقي فان هذا الحكم يكون كذلك الذي يصدره مؤرخ عقيم على نابليون الاول اذا هو لم يعتد بالثورة الفرنسية الكبرى. بل كانت

مهمة هذا المؤرخ هى دفن الامة المصرية . وهى مهمة شأنها شأن مهمة موسيقى روميو وجولييت الذين دعوا للعزف فى ليلة الزفاف ولكنهم ما وصلوا إلى مكان الحفلة حتى أدوا مهمة تشييع الجنازة وعزفوا الاناشيد المحزنة المفجعة .

فاذا نحن وصلنا إلى الحكم على الامة حكما مدعما بالاعتبارات السابقة واستخلصنا الصفات التى يتحتم أن تتوافر فى الزعيم الذى يجب أن يناط به قيادة الامة المصرية فقد حق علينا أن نقيس هذه الصفات بصفات سعد حتى نعرف هل كان رجل الساعة أم لا ؟ وهل كانت الامة عاجزة فاعجزته . أم هو الذى كان عاجزاً فأعجزها عن العمل لاستقلالها وأقعدها عن استرداد حريتها ؟ على أنه إذا كان قانون الوراثة قديم وقانون الوسط أقدم حيث يرجع ذلك إلى عهد الاغريق الاقدمين كما يستدل على ذلك من قصائد « بندار » وكما يستدل على ذلك أيضاً من الحديث الشريف « تخيروا لنطفكم فان العرق دساس » ومن الحديث الشريف « المرء على دين خليله فلينظر المرء من يخالل » فاننا لا نرجع إلى هذين القانونين إلا من الناحية العلمية الاصيلة التى ذاعت فى القرن الاخير

« لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت . ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو خطأنا . ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا . ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين »

*

قانون الوراثة

وأثره في سعد زغلول

ليس في طوق المؤرخ أن يحكم على رجل من رجال التاريخ إذا فاته الاعتماد على قانون التوارث بشقيه . الخاص والعام . وتأثير قانون البيئة. وأثر التشكك في القوة المدركة والعصبية . أو إذا هو أهمل الرجوع إلى هذه القوانين وهو يستخلص من الوقائع صورة رجل التاريخ. وسعد هو هذا الرجل سواء أحسن أم أساء إلى وطنه . لذلك نرى من الواجب. أن نبسط كلمة بصدد هذه القوانين وأحوال التشكك وأن نطبقها على سعد زغلول والامة المصرية حتى إذا ما إنتهينا إلى صورة صحيحة من سعد بروحه وفكرته وعقله وعصبه . وإلى اخرى من الامة المصرية . بحياتها وخلقها وموقفها الاجتماعي استطردنا إلى بيان أعماله وبواعثها وما حاط بها من مؤثرات تحقق معها غرضه أو أخفق .

تعريف قانون الوراثة

التوارث قانون « بيولوجي » يقضي على السلالة بان تكون تكراراً للكائنات الحية التى انحدرت منها . فهو للنوع بمثابة الشخصية للفرد . فبالتوارث يعيش في أعماقنا جوهر لا يتأثر ولا يتغير مهما تعددت التقلبات. وبه تستمر الطبيعة في التوالد لاخراج ذاتها. وتقليد نفسها على توالى الازمان .

هذا من الناحية الجسمانية . أما من الناحية الروحية .فينحصر التوارث في أن ينتج الاصل شبيهاً به . إلا أن هذا الرأى نظري إلى حد ما . لأن أحداث

الحياة ليست خاضعة لنظام حسابي دقيق . إذ تزداد صور هذه الاحداث تعقيداً كلما انتقلت بها من عالم الحياة النباتية إلى الحيوانية فالانسانية .

ومهما كانت صعوبة تقدير التشابه فان تقدير الانسان يرجع إلى ناحيتين : ناحية التكوين . وناحية المحرك . أى جهة الوظائف المترتب عليها حياة الانسان الجسدية . وجهة الاعمال التى تتألف منها حياته الفكرية .

فهل هاتان الصورتان اللتان تتشكل فيهما الحياة الانسانية خاضعتان لقانون التوارث ؟ وإذا كان فالى أى حد ؟

لقد درس العلماء هذا الموضوع من الناحية الجسدية درساً عميقاً . أما من الناحية الفكرية والنفسية فانهم لم يستطيعوا التعمق فيها حتى الآن .

ولذلك رأيناهم يركنون فى بحثها إلى المشاهدات والتجاريب . ولما كان الشأن الاكبر فى تقدير سعد ووزنه هو من الناحية النفسية . وكان انتقال الخصائص الروحية عن طريق التوارث مرتبطا تمام الارتباط بالتسلل الجسدى من جهة أحداثه وقوانينه ونتائجه وأسبابه . فقد تحتم علينا فى هذا المقام أن نشير إلى أن الاجماع قد قام على أن التوارث الجسدى يشمل انتقال عناصر الجسم ووظائفه . سواء أكان من ناحية تكوينه الداخلى . والخارجى أم من ناحية أمراضه ومميزاته وتغييراته المكتسبة دون العارضية فهل الامر كذلك من الناحية النفسية ؟

يجمل بنا قبل أن نخوض هذا الناموس النفسى أن نعرف ممن انحدر سعد وماذا كانت غرائز منبته . وصفاته وخلقه وطبعه وتطوراته .

ممن انحدر سعد

ولد سعد زغلول فى حكم سعيد عام ١٢٧٧ هجرية بناحية إبيانة التابعة لمديرية الغربية من الشيخ ابراهيم زغلول . واتفق اصطلح سعد وأقارب سعد على أن الشيخ ابراهيم كان عمدة رغم فقره وكان هكذا فى عهد سعيد واسماعيل .

يوم كان العمدة اداة تحقير للذات وللخلائق . ومن ارتضى أن يلبس فى سهولة هذا الرداء البشع تيسر الحكم على قدر نفسه .

كان الشيخ ابراهيم زغلول رحمه الله كما وصفه لنا المرحوم عبدالله بك زغلول «طويل القامة . ملىء الجسم . عريض المنكبين . واسع العينين . حاد البصر . فصيح اللسان كبير الرأس . حاضر الذهن . شهى الحديث . عف عن الثرثرة مكه فى تدبر وتبصرة . يدور مع الزمن ويلعب . ويراوغ روغان الثعلب . لايجف لبه . ولا يستريح قلبه . ولا تسكن حركته . وانما فى رصانة وتؤدة تبلغ حد الخيلاء . إذا سأله صديق أو قريب لايسمع وإنما يجمع . لا يعرف بينه وبين الموزوع سلاسة القياد . ولكنه شديد العناد . عسر الانقياد . يتناقى عمله والغيث الصيب . حتى فى الارض الطيب . ترى له فى كل وقت . عادة مقت . ونزوة شيطان . تثير الجنان . وتطارد الجنان . إذا أنت احسنت اليه ضاع احسانك كالخط على بساط الماء والرقم فى بسيط الهواء . وإذا أنت ظللته بنعمة اشتغل بسكرها عن شكرها . وإذا أسأت اليه دان بعد طماحه . ولان بعد جماحه . فهو أمام الضعيف يتمنم . وفى خدمة القوى يتطوع . ويستأسر لصاحب السلطان . ويستأسد أمام الجبان . ولذوى النفوذ يتذلل . وعلى الضعفاء يتدلل . فتجده أمام المأمور كارجوحة المواله . دائما فى نزول وصعود . وقيام وقعود . قد حذق الانحناء فى السلام والسجود . يقبل الارض بين يدى الحاكم واليه يحفد . كانه يهم بان يصلى الفرض أو يتهجد . ولا يحسن الابتسام إلا إذا جلد . ولا يزداد نشاطا وغيرة إلا ساعة التسليم . وكلما ارتفعت حرارة السياط علت أدرجة الاكبار والتعظيم . ولكنه فى الخلاء يضطرب ويضطرم وفى العراء يحتدو يحتدم . ويفور غيظا . ويتميز حقدا . ويتزبد حنقا . واليدان حرتان مقيدتان . وجمرة الغضب فى صدره تلتهب . فلا ينطلق لسانه ولكن همته تضطرب وتصطك اسنانه ورقبته تلعب ويغالب نفسه على الاغضاء . ويتلوى

تلوى الحية فى الرمضاء . ولايثور وجدانه . ولا يتماسك عند الارزاء . ولا يتمسك عند الصبر والعزاء . وإذا دعاه المظهر لبى ببيع الماء لشراء الاماء . وإذا نقصت غلته . زادت غلته . يرضى من الفضل بالقول الفصل . ومن البر الجزيل بالكلام الجزل . لايعمل فى مجاهدة هواه . ولايركب الصعب لتحقيق مناه . وإنما ينفذ إذا قدر . ولايبسط فى التقوى وانما يقدر . لاشبيه له إلا العصفور ان أنت تركته فات . وان قبضت عليه مات . فهل تأملت فى نفس سعد غريزة الاستكانة والذلة . وتوافر فيه التجرد من فضائل البطولة والاقدام . وتنزه عن العزة والكرامة . والحدة فى مواطن الحدة . والصلابة فى مواضع الصلابة ؟ وهل فاضت فى أعماقه ينابيع المجد الطبيعى . وتأصلت فيه نزعات الشهوات الممقوتة . ودفعات المطامع الخبيثة . فكان أداة سهلة الانقياد . ومعولا هداما فى يد الاقوياء . وسلاحا بحدين فى يد الضعفاء . ان قبضوا عليه لتثبيته فى صدر العدو مزق أيديهم وهدر دماءهم ؟

كيف نحكم على سعد ؟

لايتسنى لانسان أن يحكم على سعد إلا اذا عرف أولا وقبل كل شىء هل هو رجل سياسى أو عادى ؟ . لأنه اذا كان من الجائز إزاء الفرد العادى أن نلجأ الى الطريقة التحليلية فى بيان أثر التوارث فى النفس . فمن المستحيل تطبيق هذه الوسيلة على اطلاقها بالنسبة للرجل السياسى . لان رجلا من القادة . أو زعيما من الزعماء لابد وأن يعمل بمختلف مواهبه معا وفى وقت واحد . لانتاج عمل معين . وبمعنى آخر . ان رجلا سياسيا لامناص لجميع قواه من أن تشترك فى اخراج أى عمل يقوم به لان نتيجة أى جهد من جهوده المنفردة لا قيمة لها إلا اذا عاونت فى الثمرة النهائية لكده . واذن فالغرض الذى يدركه من جده ماهو إلا انتاج لوسائطه المشتركة

ان المفكر أو العالم يستطيع أن يكون بمعزل عن المجتمع وهو سابح فى أرق طبقات التفكير واسماها . دون أن يشعر بشيء . أو يؤدى تفكيره إلى انتاج أى شيء . والفنان يمكنه أن يتصور أنه ينعم ويلتذ باجل وأجمل الاحلام . دون أن يتأثر بالعالم المحسوس . أما الرجل السياسى فيشترط فيه توافر الذكاء القادر على استيعاب الخاص والعام . والحقيقة والمجاز فى وقت واحد . وإلا فانه ان عجز عن التعميم كان قصير النظر . لانحصار عمله فى التقليد والعادة .

كذلك نرى أن السياسى ليس فى مقدوره كالعالم والمفكر والفنان أن يكتفى بما يصل اليه من النتائج العامة التى يستخلصها هؤلاء من ابحاثهم لان مهمته تقتضى بطبيعتها أن يفصل فى أى مسألة خاصة . معينة . ولذلك وجب عليه أن يلهم بالجزء والكل . وأن تؤدى أفكاره إلى أعمال . وهذا مايفرض على السياسى ألا يكون نظريا مضاربا . وأن يكون على العكس رجلا يتخذ من النظريات وسيلة لتحقيق العدل الذى هو غايته . وليس فى الامكان ذلك إلا إذا كانت أرادته حديدية دءوبا تمتاز بالاقدام والشجاعة . والثقة بالذات . والقدرة على التأثير فى المستضعفين والمترددين والعاجزين .

فالخصائص التى يجب أن تجتمع فى الرجل السياسى تتمثل فى وقت واحد وفى السرعة والطمأنينة والثقة التى تتطلبها لحظة من اللحظات . سواء لحظات الهدوء أو الخطر . هى إذن موهبة الملاحظة التفصيلية السريعة البعيدة الغور . وحضور الذاكرة الامينة التى تذكر فى دقة وفى غير تردد نتائج النظريات وسرعة الخاطر التى لاتوئسها الظروف المباغتة . والارادة الصلب . والقوة الجسمانية التى هى أساس كل عمل من الاعمال .

ولقد دلل التاريخ على أن جميع الصفات الروحية تنتقل كلها أو بعضها بالتوارث . وإذا قلنا بعضها فا ذلك إلا أنه قد يحصل أن الوحدة الاصلية تتكسر عند انتقالها إلى الخلف فلا يجنى منها غير شطر بسيط .

ولنضرب مثلا واحداً بانتقال نشاط الارادة . فانه كـكل نشاط روحى آخر يمكن أن ينتقل بالتوارث . فقد لاحظ فولتير ذلك عند مادرس آل جيز حيث قال : « ان الجسد . ذلك المولد الخالق . ينقل الصفات من الاب إلى الابن خلال عصور . فلقد كان آل بيوس شجعا . لاتنثنى لهم عزيمة . وكان آل كانون قساة القلب دائماً . أما سلالة آل جيز فكانوا جميعاً مقاديم بواسل . هائمين بالعمل دواما . فياضين باوقح كبرياء . وأقبح عجرفة . مع تأدب لاحد لجاذبيته وخداعة فاجميم . ابتداء من فرنسوا ده جيز إلى ذلك الذى ذهب من تلقاء نفسه إلى نابولى دون أن يدعوه الشعب وأقام ذاته ولى أمر عليه . كانوا فى صورة برزت فيها الشجاعة ورجاحة العقل لحد عماعن مستوى الرجـال

ده جيز من الرأس إلى العقب . وكذلك
دت أن قامتهم . ستة أقدام . أما
عيون والوقفات فواحدة . (راجع

الواجب إذا نحن درسنا التوارث فى
المركز السامى الرسمى شارة جدارة
يكون عمل الرجل مقياساً لجدارته
فان مجد الآباء والاجداد وعلاقات
إلى حد بعيد وقد يكون كل شىء فى
يخ النبلاء فى انجلترا وفرنسا وتاريخ

سياسيا ؟ أن هذا يتطلب أولا البحث فى النتائج

النفسية لقانون التوارث وقانون البيئة وثانياً استقصاء عمق تشكك سعد وتأثير هذا التشكك فى قوتيه العقلية والعصبية

النتائج النفسية لقانون التوارث

والآن يجدر بنا أن نبحث عما إذا كان جميع الاشكال التى يتشكل فيها النشاط الروحى تنتقل بالتوارث فى درجة واحـدة أو من الممكن ترتيبها حسب نظام معين من ناحية قوة انتقالها وضعفه . واجتنابا للخوض فى النظريات العديدة المعقدة نقول أن جميع أشكال النشاط تنتقل على الترتيب الآتى .

(١) ينتقل جزء عظيم من الغرائز التى يتألف منها مجموع الحياة النفسية .

ولقد أختلف العلماء فى تعريف الغريزة . ولـكن هناك تعاريف ثلاثة تواضع الفلاسفة والطبيعيون على إنها أدق التعاريف .

فاولها يقول : أن الغريزة عمل يقرب من أن يكون آليا لا دخل للارادة فيه . ومن الراجح أنه خلو من التمييز . وتقوم به الحيوانات قصداً إلى الوصول إلى غرض معين باستخدام جسمها وأخلاقها

ويقول التعريف الثاني : أن الغريزة مرادف للرغبة والميل والنزعة ولهذا يتكلمون عن غريزة الخير والشر وغريزة السرقة والقتل — ألخ

أما التعريف الثـالث فانه يفهم الغريزة على أنها اسم يشتمل على جميع الاحداث الروحية التى تقع فى داخلية الحيوان . بما فيها جميع أشكال النشاط الفكرى التى انحطت عن صورة نشاط العقل الانسانى . وهذا راجع إلى الزعم بأن الحيوان يتمتع بحاسة الذكاء .

على أنه قد يكون هنالك تعاريف أدق من تلك . فقد قال هارتمان « أن

الغريزة عمل يتفق وغرض وانما دون تمييز هـذا الغرض » . وقال دورين «أنها العمل الذى لا تستطيع اتمامه إلا بتعاون العادات مع مؤثر خارجى فى المجموعة العصبية ولادخل لا رادتنا فيه »

والغريزة أما مركبة أو بسيطة . فالمركبةهى مجموعة غرائز بسيطة والبسيطة هى إحدى العادات

أما الفارق بين الغريزة والذكاء فيمكن تلخيصه فيما يلى .

(ا) الغريزة طبيعية . أى أنها خلقت فى الانسان قبل أى اختبارذاتى أما الذكاء فينمو فى بطء وبالجمع بين التجارب وتـكديسها .

(ب) تبلغ الغريزة حد الـكمال بوجه عام عنـد الخلقة . أما الذكاء فانه يتحسس ويجرب . ويفوت عليه الغرض. ويسقط فى الخطأ . ثم ينهض باصلاح

من هنا يكون انعدام التمييز .
ولا الوسائل التى تستخدمها فى
يلوح أنه مقتادبالفكرة ولاشية
تطور ولا تتقدم ولا تتأخر ولا
مو ويضمر .ويكسب ويخسر .

.ت مطلقة فان تبديلها يقع على
ن بقاءها هوالقاعدةوأما التغيير
فقاعدته التغيير والتبديل .
ـيـست أداة فى مرونة العقل . فمن
الظروف ولا أن تلابسها كالعقل

الذى يلين ويتغير فى آلاف من الطرائق . ولكن التجاريب قد دلت على أن الغريزة مرنة لحد ما عندما تؤثر فيها مؤثرات ذات بأس وسلطان ثابت . وهناك سببان هاما يحدثان هذا التغيير فى الغريزة وهما الوسط والمادة . فالجو والارض والغذاء والاخطار القاسية المحيطة هى المؤثرات التى تخضع لها طبيعة الانسان وتتمكن من تغيير غرائزه . وهذه التغييرات أو الغرائز المكتسبة تقر فى النفس وتنتقل بالوراثة (راجع التوارث النفسى لتيوفيل ريبو ص ٢٥ وما بعدها ومشكلة الحياة لبوردو)

فاذا اتبعنا القاعدة الخاصة بالغرائز الاصلية الطبيعية كان لنا أن نقول ان مجموعة غرائز العمدة ابراهيم زغلول قد انتقلت الى ابنه سعد الله زغلول . ولقد تقدم بيان غرائز الشيخ ابراهيم ضمن وصفه . ولا يمكن أن تكون نزاهة هذا الوصف موضع طعن لما كان بين عبد الله بك زغلول وسعد زغلول من جفاء . لان أخلاق سعد وأعماله وأقواله تؤيد هذا الوصف أتم تأييد واذا أردنا أن نطبق القاعدة الخاصة بالغرائز المكتسبة وجب أن نبحث فيما اذا كان قد طرأ على ابراهيم زغلول ظروف وأحوال وأهوال بدلت غرائزه الطبيعية وأقرت فى نفسه غرائز جديدة مكتسبة .

لقد بقى ابراهيم زغلول فى بلدته صغيراً وعاش عمدة كبيراً . تخضعت غرائزه لطبيعة عصره الاستبدادى . عصر عباس وسعيد واسماعيل . وفضلا عن هذا فانه لم يشترك فى واقعة من الوقائع الحربية التى بقى رجال مصر يذكرون مجدها ويتحدثون بعظمتها . ولم يعرف من المصريين هؤلاء القواد الذين تنقلوا بين الجبال والوهاد وبجد الحروب من حولهم يطأطىء الرأس أمام مجدهم الطبيعى . والجلال يخفق اليهم فى خجل ليستجدى التقرب الى جلال نفوسهم ولم يمش الشيخ ابراهيم

واقفات خلف ربى القلاع والحصون كأيام ذلك العاهل . ولم يسد فرنسا صمت كذلك الذى أطبق على هؤلاء الذين كانوا يتحدثون عن الموت إبان حكمه . ومع ذلك فالقلوب كانت مفعمة بالفرح . فياضة بالحياة . مليئة بدقات طبول الحرب . أما العيون فانها لم تعهد شمسا أظهر وأنقى من تلك التى جففت كل هذه الدماء . حتى لقد قيل إن المولى قد خلقها خصيصاً لهذا الرجل . فلقبها الناس بشموسه فى معركة « استرليتز » . ولكن الواقع هو أن نابليون خلق تلك الشموس بمدافعه الدائبة على الانطلاق والتدوية حتى أن السحب لم تكن مستطيعة أن تتجمع إلا فى الايام التالية لمعاركه .

« فهذا الهواء الذى تشبعت به تلك السماوات النقية التى بذغ فى كبدها المجد الساطع . وتلألأ فيها الحديد اللامع . هو الهواء الذى استنشقه أطفال ذلك العهد الذين أيقنوا أنهم أعدوا ليكونوا قرابين فى مذبحة اللام فجعلهم يعتقدون أن الجنرال « مورا » معصوم من العطب . منيع لا تناله قذيفة بعيد لا تدركه رصاصة . وإذا ما رأوا الامبراطور يمر على القنطرة والرصاص من حوله يتهاطل فى صفير وتدوية . قدروا له الخلود فى عالم الاحياء . بل بلغت بهم عقيدة نكران الذات أن فرضوا الموت لزاما فى المعارك الدموية . ذلك بأن الموت كان فى ذلك الحين بدلوا مستعذبا جميلا رائعا فى ثوبه القرمزى الساخن ! لا يلوح أمامهم إلا كالأمل سواء بسواء . فاذا هو حصد السنابل الصفراء التى لما تبلغ سن الشباب فما ذلك إلا لأنهم قد بلغوا حقاً سن الشيخوخة فى نظر الموت الذى لا يخطىء فى تقدير اعمار الرجال الذين أدركوا هذه السن . فالشاب كهل إذا مات فى الميدان . ولذلك كانت جميع المهاد الفرنسية دروعا . وجميع النعوش تروسا . حتى انك ما كنت تعثر فى فرنسا على شيخ . فاما جثث هامدة وأما انصاف آلهة »

وأما أثر الثورة للحق والعدل والقانون أو للعظمة والمجد الموروث فأننا نستطيع أن نستخلصه من كلمة عن أبناء الثورة الفرنسية الذين حاربوا في صفوف جيوش نابليون . وظروف هؤلاء لم تكن كظروف الشيخ ابراهيم زغلول العمدة . كما أن ظروف أبنائهم لم تكن كظروف سعد زغلول أثناء الحرب وبعده

أبناء الثورة الفرنسية

« وضع الامهات الفرنسيات جيلا قوى المراس . نحيلا عصبيا بينما كان الآباء والاخوة يحاربون مع الامبراطور في المانيا . ولقد حملت الامهات هذا الجيل خلال معركتين . فتربى في المدارس على نغمات الطنبور . ونقر الطبول . آلاف مؤلفة من الاطفال . كانوا يرقبون بعضهم البعض بنظرات حملها الحزن ورسمتها الكآبة وهم يحاولون فتل عضلاتهم الضئيلة . أما آباؤهم فكانوا يظهرون بغتة ليرفعوا أبناءهم إلى صدورهم وقد وشحها الذهب . وسطعت الاوسمة من فوقه . ويضمونهم بين أذرعهم . ويضعونهم في حنو وشفقة داخل مهادهم ثم يمتطون صهوات جيادهم مولين وجوههم شطر الميدان .

« كان رجل واحد يعيش في أوروبا وتنتذ . أما باقي الخلائق فكانوا يبذلون قصارى الجهد في سبيل امتلاء رئتيهم بما استنشقه ذلك الرجل ثم تنفسه . ولقد كانت فرنسا في كل عام تهديه ثلثمائة الف شاب . ولعمرك إن هذا العدد كان الجزية التي تدفع لقيصر . وإذا لم يتسن له الحصول على هذا القطيع عجز من اقتفاء أثر حظه . بل انه كان الحرس الضروري له حتى يتمكن من اجتياز أوروبا .

« لم تمر بفرنسا في أي وقت سابق ليال تأرقت فيها الجفون كليالي هذا الرجل . وما انقضت عليها أيام أطل فيها على العالم شعب من الايامى والثكالى وهن

واقفات خلف ربى القلاع والحصون كأيام ذلك العاهل . ولم يسد فرنسا صمت كذلك الذى أطبق على هؤلاء الذين كانوا يتحدثون عن الموت إبان حكمه . ومع ذلك فالقلوب كانت مفعمة بالفرح . فياضة بالحياة . مليئة بدقات طبول الحرب . أما العيون فانها لم تعهد شمسا أظهر وأنقى من تلك التى جففت كل هذه الدماء . حتى لقد قيل إن المولى قد خلقها خصيصاً لهذا الرجل . فلقبها الناس بشموسه فى معركة « استرليتز » . ولكن الواقع هو أن نابليون خلق تلك الشموس بمدافعه الدائبة على الانطلاق والتدوية حتى أن السحب لم تكن مستطيعة أن تتجمع إلا فى الايام التالية لمعاركه .

« فهذا الهواء الذى تشبعت به تلك السماوات النقية التى بذغ فى كبدها المجد الساطع . وتلألأ فيها الحديد اللامع . هو الهواء الذى استنشقه أطفال ذلك العهد الذين أيقنوا أنهم أعدوا ليكونوا قرابين فى مذبحة الام . فجملهم يعتقدون أن الجنرال « مورا » معصوم من العطب . منيع لا تناله قذيفة . بعيد لا تدركه رصاصة . وإذا ما رأوا الامبراطور يمر على القنطرة والرصاص من حوله يتهاطل فى صفير وتدوية . قدروا له الخلود فى عالم الاحياء . بل بلغت بهم عقيدة نكران الذات أن فرضوا الموت لزاما فى المعارك الدموية . ذلك بأن الموت كان فى ذلك الحين حلوا مستعذبا جميلا رائعا فى ثوبه القرمزى الساخن ! لا يلوح أمامهم إلا كالأمل سواء بسواء . فاذا هو حصد السنابل الصفراء التى لما تبلغ سن الشباب فما ذلك إلا لانهم قد بلغوا حقا سن الشيخوخة فى نظر الموت الذى لا يخطىء فى تقدير اعمار الرجال الذين أدركوا هذه السن . فالشاب كهل إذا مات فى الميدان . ولذلك كانت جميع المهاد الفرنسية دروعا . وجميع النعوش تروساً . حتى انك ما كنت تعثر فى فرنسا على شيخ . فاما جثث هامدة وأما انصاف آلهة »

وبعد أن سقط نابليون « جلس على انقاض العالم شبيبةحزينة مفكرة. فجميع هؤلاء الاطفال كانوا نقطا من دماء متقدة محرقة طفت على وجه الارض. أنهم ولدوا فى الحرب وللحرب ، فمر باحلامهم خلال خمسة عشر عاما صور ثلوج موسكو . وشمس الاهرام . وإذا كانوا لم يبارحوا مدنهم . إلا أنه قد ألقى إلى روعهم أن كل حلقة من حلقات الدفاع عن هذه المدن تؤدى إلى عاصمة من عواصم أوروبا . فارتسم فى أدمغتهم عوالم متعددة . ولكنهم كانوا ينظرون إلى البطحاء . ويرفعون رؤوسهم إلى السماء . ويدبرون نواحى الطرق والمنعطفات فلا يجدون إلا فراغا . »

وساد السكون . « ولكنهم مع ذلك قد رأوا رجلا يصعد المنبر . وبيده عقد أبرم بين الملك والشعب . فاحاطوا به فى صمت . وأخذ هذا الرجل يقول « إن المجد شيء جميل . وكذلك الطمع فى الحرب . ولكن هناك ماهو أجمل ! هناك مانسميه الحرية »

« فرفع الاطفال هاماتهم . وذكروا اجدادهم الذين تكلموا عن الحرية فكان فى هذه الكلمة ماخفقت له قلوبهم كما تخفق للآمال الحلوة أو ما هو أبعد منها . وأخذتهم هزة عنيفة عند سماع هذه الكلمة . ولكنهم شاهدوا فى الطريق أثناء عودتهم ثلاث سلات بها ثلاثة صبية . اقتادوهم فى هذا الشكل إلى « كلامار » . وكل جريرتهم أنهم نطقوا بهذه الكلمة فى صوت جهورى فعلت شفاه الاطفال ابتسامة عجيبة أمام هذا المنظر المحزن .

« ولكن خطباء آخرين صعدوا المنبر وعددوا علنا نتائج المطامع ونادوا بأن المجد غالى الثمن . وابانوا فظائع الحرب . واستمروا طويلا ينددون بالاوهام الانسانية التى كانت تتساقط من حولهم تساقط أوراق الشجر فى الخريف .

والجميع يصفون ويفركون جباههم بأيديهم . وكأن حمى شديدة أيقظتهم . «

«وقصارى القول إنهم ترقبوا الظرف المناسب للانفجار . وكان ذلك عندما اجتازت أفكار «بيرون» وآراء «جيته» حدود فرنسا . « ذلك بأن صوغ أفكار عامة ما هو إلا تحويل ملح البارود إلى بارود . ولقد امتص العقل الساخر اللاذع . الذى تحلى به «جيته» العظيم عصير الفاكهة المحرمة كما يمتص الامبيق روح الازهار حتى خيل لمن لم يقرأه أنه جهل كل شىء . وحملت الفرقة عباد الله البؤساء على اجنحتها إلى هاوية الشك العام كما تحمل الرياح الاتربة»

(راجع الفصل الثانى من اعترافات موسيه)

فهل الظروف التى اكتنفت الشيخ ابراهيم زغلول كانت تؤدى به إلى أن يغضب للكرامة والشرف أم كان من شأنها أن تغير من غرائزه كما غيرت ظروف الثورة الفرنسية وظروف حروبات نابليون من غرائز الفرنسيين؟ وهل كان لها فى نفس سعد أيام حمله ما كان لها فى نفوس ابناء فرنسا؟ إن الشيخ ابراهيم زغلول لم يرفع عينه عن الالة التى كانت تكرهه على جمع الضرائب ولم المشوه . ولا عن السياط الذى سخره فى سلخ جلود العباد حتى ينقذ جلد نفسه . ولم يترب سعد فى طفولته على نغمات الانتصارات والاقدام والبطولة حتى تبرز فيه غريزة الابطال فيحق له أن يدعى أنه أبن الثورة الذى يجب أن يقود الثورة ويحكم ليكون أبا الثورة على القديم والثورة للاستقلال والحرية وتكوين الوحدة القومية وأغاثى سعدا ابن العمدة وعاش عمدة يرهب ولا يستحى . ويخاف ولا يرعوى . ولقد ظهرت آثار ذلك فى تردده وتشككه وفى استخدام سلطان كان كافيا لاحياء أمة ميتة فاجهز به على أمة حية بعد أن سخره فى مصلحته . .

مواهب الملاحظة

بالحواس الخمس

ان مواهب الملاحظة بالحواس الخمس تتسلسل بالتوارث مع مختلف صور النشاط المرتبطة بها ارتباطاً مباشرا . ويظهر أن هذه القوة كانت قد انطفأت في الشيخ ابراهيم زغلول بحكم الوسط المصرى . وإلا فلو كانت الحال غير ذلك لوجدناه سعداً قد حذق حاسة التعمق بنظراته لسبر غور الأسرار الانسانية النفسية ولعرف الدفين في القلوب التى أحاطت به أو استند عليها في بعض المواقف . ولكنه كان يلقى بنظراته على الشخصيات من حوله فاذا بهذه النظرات تتراءى في غير اتساع ولا عمق . ولذلك فانها كانت نظرات خاطفة لم تأخذ إلا صورة ما ارتسم على الوجه دون أن تنفذ في غير شفقة الى الاعماق لتنقل منها صورة طبق حالة النفس . حتى يقارن بين الصورتين ويصدر حكماً صحيحاً على الشخصية التى خصها كى يبنى على أساس هذا الحكم علاقاته بها ويحدد طريقة العمل معها ونفاته .

العواطف

أما العواطف فانها تنتقل في قوة اذا كانت بسيطة . أى خاضعة للجسم . وتنتقل في ضعف اذا كانت مركبة . أى لها ارتباط بالروح . أما اذا كانت خاضعة لتكويننا الجسدى والعقلى معاً أى اذا تألف منها مايسمى بالخلق . فان انتقالها يكون وسطاً بين هذا وذاك .

وتتجلى نتيجة وراثة العواطف في شكل مزدوج . فتارة تجعل من الممكن انتاج عواطف مركبة عن طريق تكديس العواطف البسيطة . وتارة أخرى تجنح الى الماضى وتحن اليه فتكشف عن جوهره بدافع عداء الوسط المحيط .

ذلك بأن فى النفس غرائز وحشية وميولا رحالة ورغبات دموية جامحة لا يقهرها الزمن ولا يخضعها. قد اختفت فى قرارة كياننا حية . ولكن مغمضة الطرف . وعلى أهبة التجلى دائماً .

ولكن آثار سعد الكتابية لا تمكننا من معرفة عواطفه . لأنها جميعاً متضاربة . متباينة حشوها التردد والحيرة والزعزعة والتشكك . وكل هذا الصراع راجع طبعاً الى الجوهر الفزع الرعديد الذى انحدر منه سعد . ويكفى أنه قال الرعدة أن سعيد باشا كان يعدم شيخ البلد لتستره على نفر القرعة . فاذا نحن عثرنا فى صفحة من أقوال سعد على آية وطنية ، عثرنا فى أخرى على عشر آيات مروق وذبذبة أو تراجع عن الصراط المستقيم ونكول وحنث عظيم .

أما ميوله الدموية الرحالة الجامحة التى كمنت فى نفسه بحكم الغرائز فانها لم تقو على رفع مافوقها من الرماد فى أدق المآزق الحرجة والظروف العصيبة التى عصفت بزعامته وأبعدت الحكم والسيادة عنه ولكن هذه الميول ظهرت إبان جبروته وسطوته ساعة إذ كان يقهقه وقت هجوم الغوغاء على خصومه السياسيين العزل ليهدموا دورهم ويحرقوا بيوتهم وينهبوا أموالهم وينتزعوا أرواحهم دون أن يعقب على هذه القهقهة إلا بقوله : « أتريدون أن أحمى خصومى » ؟ ولقد كان له الحق فى ذلك إذ لم يستكن فى أعماقه غير غدر الوحشية دون اقدامها وجرأتها . ولعمرك انها حالة مناقضة لطبيعة الانسانية تلك التى لا تثير الوحشية ساعة الكارثة وانما تهتاجها وقت النعمة !!

وفى الحق أن هذا هو مسلك العمدة . يقبع فى عقر داره ساعة نزول المصاب . أو يهطع إلى المأمور يتمسح بالاعتاب . وعلى المنصب يسيل اللعاب . وإذا ماقدر غدر . وعبس للاهلين وبسر . وإذا كان سعد لم يكن فى ظاهره بربريا وحشياً متجرداً من الرحمة والانسانية إلا أنه كان رجلا قاسياً على أهله ووطنه . لا يعرف الدعة والبشاشة إلا لعدوه . ولا ينسلك الحب فى قلبه إلا

المادة . وإلا للمنصب . وأما من ناحية العواطف والاحساسات فلا يقل سعد عن والده . حقد ومحاباة . ولذلك فقد كان ثمن بطولته دهورة الامة وتحطيم قوتها المعنوية لسنوات عديدة وهذا ما لا يمكن أن تتسامح فيه الامم والاجيال

في الذكاء

ينتقل الذكاء الفطرى بالوراثة . ولكنه كلما نما بالاكتساب ازداد انتقاله بالتوارث صعوبة . إلا أنه ينتقل على أى حال إلى حد ما . والشيخ ابراهيم زغلول كان حاد الذكاء . ولولا ذلك لما عين عمدة فى تلك الاوقات التى تحتاج إلى ذكاء مفرط ومهارة ونعومة ولين ليبقى العمدة فى منصبه يوما أو بعض يوم . فكيف بمن قالوا أنه بقى عمدة عهداً طويلا ؟

وهنا يجدر بنا أن نلاحظ أن عمل الذكاء دائما مايتغلب على عمل الفريزة . وهذا أثر من آثار المقاصة . فكل عضو تزداد قوته تؤدى هذه الزيادة الى اضعاف قوة عضو آخر . فذكاء سعد الوراثى والمكتسب قد أضعف نفسيته وأفقده ميزات كثيرة سنعرفها فيما بعد كما سنعرف عليها عند الكلام عن التأثر الدينى وتحول سعد الى مذهب الشافعى أن هذا الذكاء المفرط كان سبب ضعفه سياسيا

وفى هذه الحالة ترى التوارث يقوم بمهمتين . فبالنسبة للذكاء نراه عاملا على الاحتفاظ بما يكسبه كل جيل من الاجيال . ويكدسه ليكون هذا المكسب وسيلة لمكاسب اخرى أوسع نطاقا كالربح المركب . يزداد رأس ماله فيزداد ربحه على التوالى . أما بالنسبة للغريزة . فان التوارث يعمل على أستحالتها إلى الضعف . ويضمن استمرار وقوع هذا الضعف على توالى الازمان . وبما أن قانون التوارث يجعل استرداد ماتفقده الغريزة متعذراً فانه يعد لخط جديد من خسارتها وضعفها . وأذن فقانون الوراثة يؤدى بحركة واحدة إلى نتائج متعارضة.

ولهذا رأينا في سعد أن ما اكتسبه عن والده من الذكاء الفطري قد نما قويا بفضل تربيته والبيئة التي تعلم فيها . وهي بيئة اختلفت كل الاختلاف من الناحية العلمية والأدبية والفنية عن بيئة أبيه

العادات والذاكرة

لقد اختلف العلماء فيما له مساس بانتقال العادات والذاكرة بالوراثة ولكن يكفينا أن نقول هنا أن سعداً كان ينسى في يومه ما عمله في أمسه . وكانت تخونه البديهة ساعة المدلهمات والنوازل والبوائق وتطاحن الأغراض وتنازع المطامع . وهذا واضح في أعماله وأقواله . كما هو واضح في الاضطراب البارز في جميع المحاول التي كان يبتكرها ساعة المأزق . خذ مثلا . « هل عندكم جريدة تدلوني على السبيل ؟ » مع أنه عمك يحق مصر في السودان قبل ذلك بقليل . ثم التنفيذ شيء والاستنكار شيء آخر . والقضية المصرية دولية . ولا نجلترا مصالح لا تتعارض مع الاستقلال وسنفصل ذلك في باب التشكك .

قانون الملابسة

وإذا كان لا نزاع في تأثر الجنين بغرائز الوالدين إلا أن هناك من العوامل ماله من السلطان القوي المعرقل لقانون التوارث بهذا الوضع . وقد حاول « هيكيل » أن يرتب هذه المؤثرات تحت عنوان عام هو « قانون الملابسة » ورد هذه العوامل إلى الغذاء والهضم بأوسع المعاني (راجع تاريخ الخليقة الطبيعية لهيكيل جزء ٩) . وهذا ماسنشير إليه عند بيان حياة سعد بالأزهر ويكفي هنا أن نقول اننا دائما نشهد مصرع الحرية والاختيار في صورة أبشع مما يمكن تصورها عندما ننظر إلى هذا النضال المستمر في أعماقنا بين الأخلاق الفردية والأخلاق النوعية . أي بين الشخصية والتوارث . ولكن النفس

يأبون التسليم بذلك وينسون كثيراً أن للوراثة سلطاناً على تكويننا وأخلاقنا أقوى من نفوذ المؤثرات الخارجية مادية كانت أو أدبية. ولمن ينسون ذلك كل الحق اذا هم لم يعتمدوا على التجاريب. واذن فالوراثة قد قتلت الحرية في أعمال الفرد. ولذلك كان جباراً أمام الضعفاء. وأداة ذليلة للهدم في يد الاقوياء. وتاريخه فياض بالادلة القاطعة على صحة هذه الحقيقة التي لا يأتيها الباطل من خلفها ولا من بين يديها. وسنفصل هذه الآيات المعجزات تفصيلا وافيا فى بابه.

قانون البيئة

وأثره في التوارث الخاص

لقد عني كثيراً علماء الطبيعة والنفس والاجناس والتاريخ بنفوذ الوسط الطبيعي وما له من تأثير الجو والهواء والارض والماء والنظام الغذائي. وطبيعة الاطعمة والمشروبات وكل ما هو طبيعي في جسم الانسان وكيف لا تصل الاستعدادات الصماء إلى مواطن الضمير وانما تدخل بلا انقطاع في الصميم بمعاونة الجو على تكوين ما يسمى بالطبع والخلق ولا حاجة بنا إلى شرح ذلك فله كتبه الخاصة.

اما نفوذ التربية فذلك كمثل سلطان الطبيعة. لان التربية ما هي الا وسط أدبي ينتهي إلى أن يخلق في الانسان عادة. بل عادات. ذلك بأن معنى التربية الصحيحة ليس في دروس الآباء والامهات والاساتذه فحسب. وانما هو أيضا في العادات والعقائد الدينية. والمظالمات والاحاديث العادية والمبتذلة. وهي في جملتها مجموعة من النفوذ الصامت. والمؤثرات الخفية التي تعمل في العقل كما تعمل

المرئيات فى الجسم . فتؤدى بعضها إلى تربيتنا . أى إلى اكتساب عادات .
على أن الواجب يقضى بأن لا نعتبر التربية من العوامل الانشائية المطلقة وأن نحلها مكانهـا المشروع فى عالم الابداع والخلق مع تغلب التوارث عليها . ذلك بأن وجود التوارث سابق على وجود التربية . وتاريخ حياة أغلب العظماء شاهد على ذلك . كما أن حياة المفكرين والفنانين والمخترعين تدل على أن التربية ضئيلة القيمة إذا قيس اثرها بأثر التوارث . فاذا قيل أن سلطان التربية كان مطلقا وحاسما فى بعض الطبائع كان هذا القول حقا . ولـكنه لا يكون كذلك فى المجموع .

فالتربية وسيله صناعية فى مبدئها . تخلق فينا طبيعة ثانية تلوح فى نظرنا أنها جبت الجوهر . ولـكنها لا تصل إلى هذه القوة فى أغلب الاحيان . فكم من رجال تحلوا بهذه التربية ولـكنها لم تهدم غرائزهم؟ فهى إذن ليست الادهانا لماعا ينهار فتيتا عند أول صدمة . لتظهر الطبيعة الاصلية بهمها ووحشيتها . أو فضائلها وقناعتها . ولقد يدهش الانسان فى بعض الاحيان عندما يرى أن شعوبا بلغت شأوا بعيداً من المدنية والوداعة والانسانية وحب الخير وفى سيادة السلام لا تلبث أن تنقلب عقب اعلان الحرب . أو عند اصطدام مطامعها بحقوق الضعفاء . وحوشا كاشرة تهبط إلى أحط دركات القسوة والوحشية . ولـكنه إذا ما فكر مليا علم أن الحرب ما هى إلا عود لمبدأ الخليقة . وسيادة الهمجية والوحشية . وما وظيفة هذه الحالة إلا أن تبعث إلى الحياة تلك الطبيعة البشرية المتلائمة معها . والسابقة على أى ثقافة . وتخرجها من مكمنها فى حماستها . وبطولتها . وعبادتها للقوة . والمطامع الاشعبية . ولذلك قد حق قول كارليل . «ليست المدنية الاغلافا يستر طبيعة الانسان الوحشية وهى تحترق بنار جهنمية»
فاذا كان لزاما علينا ألا ننسى كل ذلك . فن الواجب فى الوقت نفسه أن نعلم

أن التربية وأن لم تكن كل شيء إلا أنها قطعت بالعالم أشواطاً بعيدة في المدنية والرقي حتى وصلت بنا إلى ما نحن عليه من رفاهة وترف . فهي لذلك عامل لا يستهان به . ومن الممكن أن تخمد أنفاس الغرائز إلى حين .

ففي أي بيئة تربى سعد ؟ وهل كان في مقدور هذه البيئة أن تؤثر في نفسيته وغرائزه حتى تغير معالمها وتبدلها أطواراً ؟

في الكتاب

لقد تلقى سعد زغلول العلوم الاولية في كتاب بقرية ابيانا . ومعلمو الكتاتيب إذا إمتازوا عن تلاميذهم فبحفظ القرآن عن ظهر قلب دون فهم معانيه وحكمه وسمو مواعظه وجليل آدابه . فهم اذن عاجزون عن أن يبثوا الفضائل والخلق الكريم في نفوس الاطفال . قاصرون عن تقويم أعوجاجهم الخلقي وإنتزاع الرذائل الموروثة . أضف إلى هذا أن «فقي» الناحية تابع للعمدة ومن رعاياه . فهو بهذه المثابة خادم أمين للعمدة ولابناء العمدة . لا يستطيع أن يقاوم لهم هوى . أو يصرع لهم إرادة . أو يلاحظ عليهم تنكب الصراط المستقيم . ولذلك لا يمكن أن تستنتج إلا أن وسط الكتاب أن لم يكن أتعس من بيئة بيت العمدة بحكم مايجمع من شتات ألوان الاهالي ومزاولة «المقرعة والفلقة» فانه على الاقل متجانس معها . وعاجز عن أن يؤثر في غرائز سعد تأثيراً يرفعه عن المستوى الخلقي لابناء العمد في ذلك العهد السحيق .

لقد بقي سعد في بلده يتعلم العلوم الاولية الى سن السادسة عشرة من عمره . فهو إذن كان قد تكون وشب في هذا الوسط الذي يزيد الغرائز رسوخا أن لم يرجع بها القهقرى ويدهورها من جراء الاختلاط بمن هم أحط من مستوى دار العمدة . ثم انتقل إلى القاهرة لتلقى العلم في الازهر .

فهل كان الازهر والحياة التي يتطلبها التحصيل في الازهر ... وطه وتدهور التدريس فيه مما يساعد على السمو بغرائز ابن العمدة ؟

في الازهر

لم يكن وسط الازهر في مجموعه بأرقى من وسط « دوار » العمدة ... المعيشة التي تفرض على الازهري بأرغد مما هي عليه في منزل العمدة ... كان سعد قد حضر العلم في الازهر على علماء أعلام كالمغفور لهم الشيخ ... العباسي والشيخ احمد الرفاعي أبو النجا الشرقاوي . والشيخ محمد عبده ... ان هؤلاء ما كانوا أساتذة له خاصة . ولا كان اجتماعهم به على التوالي ... ما كان قد أكثر من التردد على الشيخ محمد عبده كبيراً . فان عقيدة هذا ... اذ لم تكن خالصة من الشوائب السياسية . وإذن فقد كان سعد ككل أزهري يحضر حلقة الدرس ثم ينصرف مع اخوانه الى وكره . واذا خرج للرياضة والنزهة فالى أقرب بقعة منه . الى جبانة المجاورين . ولكن سنه ما كانت تساعده على أن يعتبر ويستعبر أمام طي الدنيا ونشرها . وانما ساعدته على أن يشب متسولا ويترعرع متسولا لينادي بأن في ميدان التسول متسعا للجميع حتى انتقلت العدوى الى الامة جمعاء فأصبحت تستنكف حقها في كبرياء وعظمة هي عين الخزي القومي . وأي وكر كان يأوي اليه سعد؟ وأية حياة تلك التي عاشها ؟ ان حياة الازهري في غابر الازمان ما كانت تدعو الى المنافسة في سبيل التمتع بها . ولا كانت تغري على الاندماج في زمرتها . ويكفي أن يكون الانسان سمع وصفها من فم الاستاذ ابراهيم الهلباوي بك ليجزم بأنها حياة تعطل من السمو بالاحساسات والعواطف والعقل . وتعوق نبل القلب عن الاستظهار على نقيضه . سواء أطبقنا قواعد قانون البيئة أو قواعد قانون الملابسة الخاص بالغذاء والهضم

فلا الجو ولا الهواء ولا الماء ولا النظام الغذائي وطبيعة الاطعمة والمشروبات ولا الاحساسات الازهرية التي كانت تدخل بلا انقطاع في جسد سعد مما يستطيع أن يعاون على تكوين طبع جديد أو خلق جديد يغير خلق ابن العمدة وطبع ابن العمدة أو يزيل أثر الرعدة المتخلفة من «الفلقة والمقرعة»

أما التربية المدرسية الازهرية . أو بعبارة أصح أما الوسط الادبي الازهري الذي كان في جملته مجموعة من النفوذ الصامت والمؤثرات الخفية التي تعمل في العقل كما تعمل المرئيات في الجسم فانها قد أدت بصفتها إلى تربيته أي إلى اكتساب عادات . ولكنها لم تكن عادات تحمل على استئصال نزعات العمدية . بل كانت عادات تنمي نزعات المستبد الضعيف . ولا سيما إذا راعينا أن علوم الازهر ليست أصليا مما ينمي المدارك . كالرياضة والفلسفة والتاريخ الخ

لذلك تخرج سعد من الازهر مطبوعا بطابع العمدية وبقي طوال حياته كذلك إذ كان قد اكتمل وقتئذ سن النضوج . وإذا كان الوسط التالي لوسط الازهر قد غير فيه أو طور ، فانما رماد غشى النار لا يلبث أن يتطاير إذا ما عصفت عاصفة غيظ أو حقد .

سعد بعد تخرجه من الازهر

لقد بقي سعد نقمة للدانين . وغمة للقاصين . وغصة للمعارضين . وألعوبة في يد الغاوين . وشقاء السقيم . والداعي إلى صراط غير مستقيم . والدليل إلى البلاء المقيم . والمروج لعذاب يوم عقيم . سالك مسلك سنة الاقوياء . وهاضم حقوق الضعفاء . ومقيم شعار دين الاذلاء وشرائعهم . ومريد شوارعهم . ووارد مشارعهم . ليس لقلبه مفتاح . ولا لبصيرته مصباح اتخذ الحق ظهريا . ونبذه نسياً منسيا . لا تهون الدنيا عليه حتى يجملها

وراءه . وإنما هي عزيزة عليه فيحلها مكان إمامه . ولا يتصور الموت في أي وقت أمامه. لذلك فانه ما كان يعقد بالعدل عقيدته . ولا يطوي على الاحسان والفضل طويته . إذا ساد لا يعتدل الجائف . ولا يقصر الحائف . ولا يأمن الخائف. ترعد فرائص العزل من رواعده . وتبرق أبصارهم من بوارقه . وتصعق الضعفاء صواعقه . انه كان للاولياء والخصوم الشرفاء كالغيث الغادي . وعلى المخلصين الاطهار الاتقياء كالليث العادي. يعترف أعداء الحق بعوارفه وفضله . ويغترف الاذلاء والمستضعفون من نواله وبذله . بينما لا يبذل أي جهد . في رعاية عهد. ولا يتصافى على كدر الزمان . ولا يتوافى على غدر الحدثان . يجهل انه والناس كاليدين. وأن العين لا تستعين إلا بالعين . يحول مواثيقه على الاحوال . واختلاف الاحوال . لا هو لاخوانه عدة عند الشدة. ولا عصرة لدى العسرة. يخالفك ولا يحالفك . ويصاديك ولا يصافيك . ويفارقك ولا يرافقك . ويكاشرك ولا يعاشرك . أبداً لا يكون لك نافعا. ولا عنك دافعا. إذا حضر أثنى ومدح . وإذا غاب عاب واغتاب وقدح . ظاهره خل موافق . وباطنه سرطان نافق. يزنك بالميزان الخفيف . ويقومك بالثمن الطفيف. همته هامدة . ويده جامدة . اذا احتاج تخاضع وتواضع . واذا استغنى تكبر وتجبر . لا يتبصر ولا يتصبر . ولا يعرف ان يتخذ من القناعة صناعة. ولا يرضى بالمال اليسير. حتى أمس أسيراً للمياسير . متناقض . يكتب بالمسك ولا يختم. كما يقولون . بالعنبر . ويورق بالذهب. ولا يثمر بالجوهر . جبان الى مفره اسرع من الماء المتدفق الى مقره . لم يكن لعنان هواه املك . فهوى بالمركب اللذيذ الى المهلك . نيته معلولة. وعقيدته مدخولة . ظاهره يسر الناظر . وباطنه يسيء الخابر . حذق التلفيق والتنميق. ومرد على الاختلاق والتزويق. كلامه من عناصر نفسه ولذلك فلا تعرف الحقيقة أن تمشي في مناكبه. ويخشى الصدق أن يتردد في مذاهبه. واذا

حارب فبسيف كليل لا يقطع. وإذا هم ليضرب يرتد ويرجع . فترى اليراعة الجوفاء اثبت منه قوة . وأشد منة . اذا ذكرت السيوف لمس رأسه هل ذهب؟ وإذا نقلت الانباء خبراً عن بريق الرماح مس جنبيه هل ثقب ؟ وإذا جاء حديث المدفع غاب عن صوابه وتشنج. وأن دوى جمد فى مكانه أو كان وكأنه قد فلج. وستطلمن تعلم ق كل ذلك فى مكانه.

مع العرابيين

ترك الشيخ سعد زغلول الازهر وعين بقلم تحرير الوقائع الرسمية بالداخلية واستمر فيها سنة ثم نقل إلى نظارة الداخلية بوظيفة معاون أثناء وزارة محمود سامى. ثم عين ناظراً لقلم قضايا مديرية الجيزة إبان اشتداد الثورة العسكرية . واستمر فى هذه الوظيفة إلى أن قمت الثورة ورفت. ومن هنا يتضح أنه كان مشايعا للعرابيين وأنه كان خطيبا من خطبائهم المفوهين وخادم أغراضهم الامين والا لما رقى بهذه السرعة إلى ناظر قلم قضايا ودوق مؤهلات حقوقية على النحو الذى كان سعد يحابى به السعديين. فما هى عوامل هذا الوسط التى أثرت فى نفسه وما هو مدى تأثيرها فى غرائزه ؟ . وهل سمت به عن مستوى العهد أم هوت به الى حضيض آخر ؟

ليست الثورة العسكرية بنت اليوم الذى ظهر فيه عرابى على رأسها . وانما هى بنت اليوم الذى هم فيه الضباط لمقاومة الوزارة المختلطة التى أقامت فى سنة ١٨٧٨ صرح النفوذ الاجنبى فى مصر . ولقد كانت هذه الثورة فى بدايتها أصلب عوداً وأنبل مقصداً . وأشرف غاية . وأحزم قيادة . وأبعد عن الشهوة الخاصة منها فى الايام التى تسلط عليها عرابى وانضم اليها سعد بعد أن أتم التحصيل فى

الازهر . حيث كانت قد تطورت من ثورة قومية الى ثورة عرابية لا فكرة عامة لها ولا غرض أسمى ترمى إلى تحقيقه . وإنما كانت أنشودتها الوظائف العسكرية أولا . ه الوزارة أخيراً . كما تطورت ثورة سنة ١٩١٩ من ثورة وطنية الى ثورة سعدية . وانتهت بأن صارت ثورة وظائف ووزارات .

ولقد تطور هاتان الثورتان لعامل نفسى واحد هو الشهوة الفردية التى ازدوجت بعامل فكرى هو التشكك . فكانت النتيجة واحدة : تدهور عام فكارثة استسلام . إذ كان العرابيون فى نهاية أيامهم قوماً ترددوا وتشككوا فى الطريقة التى يحققون بها مصالحهم الخاصة . ولذلك فانهم أسلموا قيادهم للخزى والعار فيما اصطلح على تسميته بمعركة التل الكبير . بعد أن ضمنت الحلترا العرابى عزل الخديو توفيق . بينما الانجليز هم الذين فشلوا أمام كفر الدوار وكان فى المقدور عسكريا الحاق الفشل بهم نهائياً بردم القناة واطلاق المياه واغراق الشرقية ولقد انغمس سعد فى معمان هذا التردد فطبع عليه وتأثر به وبقى فى جميع أدوار وظائفه وحياته المقول إنها سياسية كالريشة فى مهب الريح لا يستقر على حال .

إننا لسنا أشفق على سعد من نفسه . ولقد أعلن جهرة وفى محضر الجمعية التشريعية بتاريخ ١٦ يونيه سنة ١٩١٤ أنه رجل متردد متشكك متلون الشعور والعقائد حسب المنصب . ووفاق الظروف . فاذا كان قد اكتسب شيئاً من الثورة العرابية . فانما يكون قد اكتسب تدهوراً فى العزيمة . وانحطاطاً فى القوى القادرة على تكييف الادراك . وتكوين الاحساسات . وهذا ما سنبينه تفصيلا عند الكلام عن التشكك .

بعد الثورة العرابية

أقصى سعد عن وظيفته بعد اخماد الثورة العرابية فاتخذ المحاماة أمام المحاكم الملغاة مهنته . ثم اتهم فيما بعد بانضمامه إلى حزب الانتقام وهو الحزب الذى تأسس

في مصر عقب قمع الثورة العرابية . ولكنه برىء بعد سجنه عدة أيام ولما تشكلت المحاكم الأهلية انضم إلى المرحوم حسين صقر واشتغلا سويا أمامها ولما مات وضع يده على المكتب ولهذا الشأن حكاية قاسية . ولكن المحاماة في ذلك الحين لم تكن مما يؤثر في النفس أي تأثير . أو تحدث فيها أي انقلاب بحكم وسطها ووسط المعاصرين . إلا أن مطامع سعد كانت كبيرة . ولذلك تدخل في المقامات العالية وتودد إلى الدوائر الانجليزية . وانخرط في سلك ندماء المرحومة الاميرة نازلي هانم افندي . فكانت حبل اتصاله الوثيق بالساسة الانجليز من جهة . وبمصطفى فهمي باشا من جهة أخرى . وتم تعيينه في السلك القضائي .

تقرب سعد الى الانجليز وتزلف . وارتمى في أحضانهم وتمرغ . وكان صهره مصطفى فهمى رئيس الوزارة المطواع خير معين له على هذا التمرغ حتى احتضنه الانجليز وشملوه برعايتهم واتخذوه وزيرهم يشد أزر دنلوب في محاربة العلم والتعليم واللغة العربية والكفاءات الوطنية . والاحساس المصرى والمصالح المصرية الاولية . والحريات بمختلف أنواعها.

فمنذ سنة ١٨٩٠ حتى سنة ١٩١٣ والانجليز يحتضنون سعداً . ومنذ سنة ١٩١٣ حتى ١٩١٨ وهم يمنونه ويواسونه . ومنذ سنة ١٩١٩ حتى سنة ١٩٢٧ وهم يداعبونه ويدللونه حتى انطبع نهائيا بطابعهم . واسلم زمام نفسه اليهم وقياد زعامته لمشيئتهم .

لقد قلنا هذا القول وأشد منه لسعد في حياته . بل واتهمناه بالخيانة إذا بحث تهمة الخيانة التى أسندها لعدلى باشا . ولقد قدمنا للمحاكمة وصدر الحكم ببراءتنا وتأييد وجهة نظرنا وهاهى جرائد الوفد تعترف اليوم بالجريمة العظمى في غير خجل ولا استحياء . وفي معرض الاستجداء المسنون في قالب التمييز بالعداء المعروف للانجليز والتساهل معهم والتسليم لهم في حق الوطن

ولعمرك أنه لتعتبر بمثابة الشهادة القاطعة على جريمة الخيانة العظمى

قالت صحيفة الجهاد الصادرة بتاريخ ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٣١ تحت عنوان (السياسة البريطانية عدو مصر اللدود) ضمن ما قالت ما يأتى. « صحا صحيحتنا فى هذا المكان تحت هذا العنوان أمس مجاهرة بالحقيقة المرة التى طالما حبستها فى صدورنا مراعاة لما يسميه بعض الساسة (مقتضيات السياسة وترقب الظروف)

« ولكن حبل هذه المصابرة قد طال حتى تجاوز طوله كل معقول. وحتى أفسد علينا جهادنا وأذهلنا عن قضيتنا الكبرى فى صورتها الطبيعية ووضعها الصحيح .... » .

وإذا نحن ذكرنا هذا القول فانما على سبيل التمثيل لا الحصر. إذ ليس المقام مقام التدليل على التهم الصحيحة وإنما مقام استشهاد على حالة نفسية عقلية مكتسبة بباعث الوسط فجاءت مدعمة للغريزة الاصلية فى سعد. وهى غريزة التسليم للقوى. والتقهقر أمام الباطل. أو طلائه بدهان يظهره فى صورة الحق تطمينا للنفس وترويجا لها .

فاختلاط سعد بالانجليز. واحتكاكه الدائم بهم وبمستشاريهم. وتعوده سماع كلامهم والاصغاء اليه وتنفيذه قد ألان فى ابن العمدة لينه الطبيعى. وأرخى من رخاوته الغريزية وأطلق يده فى انتهاب حق الغير ليجود به ويسخو تعليلا للنفس باستبقاء هيبة العمدة وأبهة العمدة. وضاعف من زهده فى خدمة المصلحة العامة التى لا يعرفها العمدة ولا ابن العمدة إلا كرها منه أو تظاهرا بأدائها احتفاظا بمنصبه أو مركزه أو زعامته على أهل قريته .

هل هناك عناصر أخرى

غيرت من غرائز سعد ؟

كان سعد من تلاميذ الشيخ محمد عبده . ولكن الشيخ محمد عبده كان رجلا مصلحا اجتماعيا أو دينيا إذا صدقنا اللورد كرومر . دون أن يكون مصلحا سياسيا كما يدل على ذلك جميع مواقفه ومذكراته ومطالبه الخاصة بالحكم الذاتى . ولذلك لم يكن في وسعه أن تخلق زعيما سياسيا . فهل هناك وسط احتك به سعد غير وسط المنزل والكتاب والازهر والوظيفة ؟ وإذا كان فهل كان هذا الوسط على قوة تستطيع أن تؤثر فى أعماق سعد لتجتث منها غرائز بطش الضعيف بالاضعف . ورعدة الواهن أمام القوى . وطلب الطعن والنزال إذا ماخلا سعد إلى نفسه ؟

نعم هناك الرأى العام . ولكن هل كان هذا الرأى العام قد تكون أيام شباب سعد بصفة جدية صالحة لان تقدم أصلح غذاء لتقويم النفس . وتهذيب الخلق وتثقيف العقل . وتدعيم الارادة . وتطهير الضمير ؟

لقد شهد سعد أول ماشهد نهاية ثورة . وفترة انتقال حف كلاهما المتاعب والطنين والاعياء والصخب والعجز والنوم .

قبيل نهاية الثورة

لقد ظهر سعد فوق خشبة المسرح فى عهد ملىء بالحوادث الجسام فياض بشارات التدهور التى ارتسمت فى أفق الغيب الساخر لتنبيء بأن مصير مصر على أهبة الانقلاب . وتمهد لتوطيد دعائم الحكم الاجنبى فى وادى النيل .

كان مظهر العرابيين وقتئذ غير مخبرهم . انهم كانوا يلوحون فى صف مصر

بينما كانت وراء كثير المصالح الخاصة الخفية تغلي لتقضي على الاطاحة بالصيامة.
ورغماً من أنه قد كان في مقدور أغلبية النواب الذين أيدوا عرابي أن يؤيدوا
كائناً من كان بنفس الحماس والغيرة والعقيدة المتشابهة والثقة القوية. ورغماً
من أن هذه الاغلبية لم تجمع صفوفها حول فكرة معينة أو برنامج معين.
بل كانت حائرة مترددة متشككة. لها في كل يوم شأن. وفي كل يوم ميل
وشهوة. فان ارتباط بعضها ببعضهم لم يتوثق إلا لأن أفرادهم يريدون تحقيقه
بمصادقة الوزارة أو بالانخراط في سلك خصومها. كواقع اليوم وأمس ولقد
سمعنا المصريين والاجانب يتحدثون عن العرابيين والخديويين. أي عن حزبين.

ولكن الواقع كان ينهض سلطاناً على أن ليس ثم فوارق محددة بين
المعارضين والحكوميين أي بين المؤيدين للخديو والمناصرين لعرابي فالفريقان
قد امتازوا بالرغبة الشديدة تجلت في الشهوات التي استبعدتهم عن الحكم
ثم فرضت عليهم السعي في سبيل استعادته.

فالشأن بالأمس كان لايما كان غير شأن اليوم. عقول دائماً قلقة مضطربة
دون أن تقوى على أي عمل أو تستطيع استخدام ما أوتيت من مواهب
لتحري أصل الداء الخطير والوصول الى حقيقته لمداواته. والواقع أن كل شيء
في مصر قد قام بين رجال يمكن أن يقال انهم جميعاً من مستوى واحد.
ومصلحتهم السياسية واحدة. هي في استبعاد من هما عليهم ومن دونهم عن
الوظائف العمومية. ولهذا فان الطبقة المتوسطة سادت وحكمت. ومن الراجح
أن لا يفهم جيلنا كيف ظهرت حكومة عرابي في نهاية أمرها بمظهر الشركة
الصناعية تجري أعمالها وراء تحقيق الاستغلال الذي رغب فيه مساهموها.
كما ان من الراجح أن يعجز الجيل القابل عن أن يتصور كيف نقل سعد هذه
الخطة وطبقها. وكيف اتبعتها من بعده الوزارات المختلفة.

بلاغة الخطباء

أما بلاغة خطباء الثورة العرابية فقد وصلت نسبيا الى حد معجز . ولا عجب فى هذا القول . فان كفاياتهم اذا قيست بمستوى الامة اتضح انها من ذلك الطراز الذى حذق اخفاء تجويف الفكرة وفراغها بنقاب من الفصاحة الخلابة . وتبطنها بطلاء من نوع خاص من أنواع المبادىء السامية ، وتجميلها بنسيج من النظريات الساحرة التى تأخذ المستمعين بالنواصى والاقدام ولا تترك النظارة الا أسرى القيود والاغلال الروحية . ولعمرك انها قيود أقسى من الاذلال المادى . وهذا ما اكتسبه سعد وشاهدناه فى خطبه . سحر ولكن يذهب باحراق قليل من البخور العقلى .

فهل سمع سعد من ماكى تيير أو كافور أو جمبتا متقمصا أو متجسدا البارودى أو عبد الله النديم أو عرابى لينظم نظائر الحرية الصحيحة ؟ أو قرأ لواحد من كبار الرجال كتابا وهو فى ريعان شبابه حتى يشب متخلقا بخلق وطنى أو سياسى كريم ؟ كلا . فما كان بين العرابيين واحد يضاهى هؤلاء . وما بدأ سعد دراسة اللغة الفرنسية إلا حينما من الله عليه فى كبره بالتعرف برشدى باشا فشجعه على تعلمها .

فمن أين تتغير غرائزه الخشنة . غرائز المعاش والدرور كنت فى الضعف لتؤذيه وتؤذى سمعته وسمعة بلاده ؟ من أين له أن يصل إلى ذلك وقد عجز عن أن يباشر عظماء الرجال ولو فكريا فى الوقت الذى كان فيه كالعجينة على استعداد لان يسنه الوسط العقلى كما يهوى ويشاء ؟

فهل قرأ مرة أن «تيير» جعل خلال وزارة جيزو (سنة ١٨٤٠ . سنة ١٨٤٨) يلقى فى البرلمان من وقت لآخر محاضرات عن الشرف القومى والكرامة الوطنية ليهاجم بها حكم الفرد حتى برع فى هذا الفن وأمسى كبير أساتذته

فجاءت خطبته التي القاها بمناسبة ميزانية سنة ١٨٤٩ معجزة فنية لا نوردها كلها هنا وانما نجتزىء منها بقوله « تبدأ الحكومات حياتها بالفوز والغلبة . ثم يقتادها مصيرها إلى الفشل والخذلان ... إن الامة قد خولت الحكومة سلك المشروعية الذي يغنيها من الحاجة إلى أي سلطان آخر في الوجود لاجازة هذا الصك . ولقد كان الواجب يفرض عليها اذن أن تتبع ادارة قوية ماهرة حازمة بصيرة . وهذا ما في طاقتنا أن نسميه سياسة متواضعة تستطيع مع الزمن أن تكون شريفة مجيدة .... وهل كان في المقدور منذ عشر سنوات أن نجترىء على الافصاح بأن الملك يسود ويحكم رغم مسئولية الوزراء ؟ . لقد كنا نقول إن أي فكرة من توازن السلطات ونفوذ الملك والوزراء وتجاريب عودة الملكية وذكرى الكارثة الكبرى يجب أن تدفعنا إلى السعي في جعل المسئولية الوزارية جدية حتى تكون الحصانة الملكية جدية أيضاً .. . وهذه هي القاعدة التي جعلت من (كازمير بريه) وبرولي رئيسي وزارة بمعنى الكلمة

« أن الامم المستنيرة لا يجوز أن تحكم على وتيرة الدول الاسيوية . ولكي نصلح نظام الوراثة قد وضعنا نظاما حكيما بقدر ما هو بسيط . وهو ينحصر في أن يكون بجانب الملك وزراء جد مسئولين . لهم من السلطان حقيقته ومظهره . . . فالواجب على الوزراء الا يتواروا وألا يرفضوا القيام بمهمة الوسطاء والسماسرة ... فالوزراء الذين يمحون أنفسهم قد يمكن أن يكونوا وزراء فصحاء بلغاء . ولكنهم ليسوا وزراء المسئولية العاليه .. وعلى ذلك فالملك يسود ولا يحكم » وهل سمع سعد أن جيزو أجاب على هذا القول في ٢٩ مايو سنة ١٨٤٩ بقول سامي الخطر حيث قال « ليس العرش كرسيا خاليا . وانما هو كرسي له فكرة سياسية . ولا يجوز لاحد أن يحاول الجلوس عليه .

« أن شخصاً ذكياً حراً . له أفكاره وحواسه . يجلس فوق هذا الكرسي

وواجبه يفرض عليه ألا يحكم إلا بالاتفاق مع السلطات العليا التى أنشأها الدستور . . . وليس من واجب مستشار العرش أن ينصر العرش على المجلس النيابى . ولا أن ينصر المجلس النيابى على العرش . فهمة الوزراء فى بلد حرهى الوصول بهذه السلطات المختلفة إلى فكرة مشتركة . وسلوك متبادل . ووحدة فى توافق الرأى حتى تتحقق الحكومة الدستورية » ؟

لم يسمع سعد شيئاً من ذلك ولم يقرأ مثله وقت أن كان صالحاً لأن يكون جسماً ونفساً ولذلك لم تكن حماقة خطباء العصر العرابى بكافية لتغيير الفراغ الا الأسوأ .

هل كانت هناك ديموقراطية ؟

وكيف يكون الامر على خلاف ذلك ولم يكن الباب مفتوحاً أمام روح الديموقراطية التى كانت قد ذاعت فى أمريكا وانتقلت إلى أوروبا قبل الثورة العرابيه بما يقرب من نصف قرن ؟

لقد كانت الديموقراطية قد أصبحت أيام شباب سعد أمراً واقعاً فى أمريكا وأوروبا حيث تساوى الامريكان أولا فى الحقوق السياسية . ثم أخذت الفكرة تمهد أمامها سبيل النبت والنماء . دون أن يعوقها عائق أو ينزل بها قضاء حتى لقد حض الكتاب فى نهاية النصف الاول من القرن التاسع عشر على التأمل فيها والعمل لها كى يمكن الوصول إلى النتيجة المحتومة والمستقبل الثابت . إذ كلما تساوت شروط الحياة زالت النظم العتيقة . والعادات السقيمة الموروثة . التى كانت أداة غير صالحة لان تكفل للمجموع الانسانى حياة طيبة . وقام محلها نوع من الاستبداد « الواسع الرحيم » يمد فوق رؤوس الجماعة شبكة من القواعد الصغيرة المضطربة الدقيقه المتلائمة . التى تحتم فى بادىء الامر إيجاد نظم تحميها . ووسائط تذود عنها . ولا يكون ذلك إلا فى حرية

الصحافة وفى انشاء الجماعات والاحزاب القوية. وفى اللامركزية التى تخول كل أقليم حياة سياسية خاصة. بهذا ما دعا « توكفيل » الاجيال القادمة لتحقيقه ابتداء من سنه ١٨٤٠. فهل ذاع فى وسط عرابى شىء من ذلك حتى يكون سعد قد تطبع به واقتلع من نفسه بذور الولع بالشقاء والاشقاء ؟ كلا. وكل تصرفات العرابيين تدل على عكس ذلك. وتهتف بأنهم إذا كانوا قد طالبوا بالمساواة فى بادىء الامر. فانهم جعلوا منها فى النهاية وسيلة حولت مصر إلى تركة لم توزع على جميع أبناء مصر وفاق الفريضة الشرعية. وفاق الحق والعدل والانصاف والكفاءة وقانون المنافسة إذ قصروا توزيعها على أبناء عرابى وذوى إرحام عرابى كما وزعت من بعده على أبناء سعد وذوى إرحام سعد ومن بعده على أبناء كل وزارة وذوى أرحام كل وزارة ولكن بلا ترتيب بين الطبقات.

فى مجلس النواب

وهل كنت تستطيع فى النهاية أن تأنس فى مجلس النواب نواح خصبة تقسم لبذر بذور جديدة صالحة. وتطيق العمل لذلك. وتتحمل المجهود الذى يستلزمه أداء هذا الواجب ؟ وهل التف حول عرابى بعض رجال تفرغوا لدراسة المسائل الحكومية والشئون الادارية العامة وتمحيص الميزانية أو إصلاح قانون الانتخاب وتنظيم العمل والاشغال العمومية ...... الخ. حتى نستدل من ذلك على وجود الروح الحزبية اللازمة ؟

وهل عمد نائب من نواب عرابى. أو عرابى نفسه بمساعدة الاخصائيين إلى رد الحياة إلى طبقة الشعب التى إنطفأت فيها جذوة الحياة السياسية مع أن هذه الطبقة هى التى طالبت قبل غيرها متى أنعدمت المساواة بحق الحياة والوجود دون الطبقات الاخرى التى لم تدب فيها الحياة إلا بفضل هذه الطبقة المجاهدة ؟ هذا إلى أن مصالح الطبقة المتوسطة كانت قد تلاءمت لدرجة تفادى الناس معها

كل منافسة وكل انعدام لأى عالم سياسى يتشكل بهذا الشكل لا يصلح لقيام أحزاب فيه بالمعنى الصحيح للكلمة . مادمنا لا نستطيع أن نلمس فيه تعارضاً وحركة وخصباً وحياة مما لا يتوفر إلا من وجود الاحزاب في البلاد الاخرى ، »

ثم من يستطاع أن يرفع عقيرته أمام « أبى الامة » الفلاح القح مطالباً بالتصريح لطبقة الشعب باشتراك منتظم في إدارة الشئون العامة حتى يعرفوا أن يوجهوا الجهود التشريعية في سبيل تحسين مصيرهم الادبى والمادى . وتعميم التكاليف العامة وانصاف المساواة القانونية والرقابة المرتبطة بحق الحكم؟ من رفع صوته مطالباً بذلك رغماً عما فى هذه المسائل من شرف وعدل تقتضى به الضرورة ويحتمه التبصر بالامناز ع؟

لا . إن روحاً من هــذا القبيل لم تكن فى وسط عرابى حتى تسمو بخلق سعد وترفعه من مستوى العمدية إلى مستوى ديمقراطى . ولذلك فان سعداً طبق واقع سنة ١٨٨٢ على سنة ١٩١٩ وما تلاها فسحق الكفاءات .

الموقف العلمى والسياسة

إن بحث الحياة العامة للشعوب سواء أكان من الناحية السياسية أم من الناحية الاقتصادية لابد أن يصطدم بصعوبات كأداء عندما نريد أن نعرف نشأة المظاهر العلمية المختلفة . وذلك راجع إلى قوة التيارات الفكرية والتيارات الحيوية الرئيسية التى تسود الشعوب إبان نهضاتها . ولهذا تقرر ارتباط الانتاج الادبى والفنى بالظروف المتولدة عن الحوادث السياسية والرقى المادى ارتباطا وثيقا .

فالآداب . والفنون فى بعض الاحيان . تختلط بالسياسة اختلاطا تاما . ويرجع هذا الامر إلى اشتراك الامة اشتراكا فعليا فى الحياة العامة . حتى لقد رأى بعض الدول أن من الطبيعى أن تمثل الآداب فى البرلمان . وان تمثل السياسة

فى المعاهد العلمية مادام الكاتب لا يحرز السلطان إلا بالمؤلفات والمقالات . والسياسى لا يستطيع أن يسعى للمجد إلا عن طريق العلم والأدب . حتى لقد رأينا النائب والشيخ والوزير يجنحون إلى الجلوس فى مقعد الأديب ورأينا الشاعر والفيلسوف والروائى وعضو المجمع العلمى يميلون إلى الجلوس فى مقاعد السياسى . وشاهدنا العالم والأديب يفخران بحكم أمتهما والتشريع لها . حتى لقد كان طمع « تيير » فى أن ينخرط فى سلك المجمع العلمى الفرنسى يعادل مطمح « فكتور هوجو » إلى أن يجلس فى مقعد مجلس الشيوخ . ولما صادرت حكومة فرنسا رواية « الملك يلهو » صاح هوجو : « الآن بدأت حياتى السياسية » فماذا كانت الحال أيام الثورة العرابية ؟

لقد كانت الثورة عسكرية . ولذلك لم تثمر إلا هدما وركاما ورماداً .

انها لم تكن ثورة عمرانية قومية بالمعنى الصحيح . ولا هي ثورة فكرية على الخصوص . وانما كانت ثورة مناصب واحلال إنسان مكان انسان فى العيش والارتزاق فطبعت شباب ذلك العهد بهذا الطابع ووسمتهم بهذا الميسم حتى الآن . ونقل هؤلاء طبعهم بالوراثة أو العدوى إلى أبنائهم ومن خالطهم وعاشرهم . فكانت المأساة التى نشاهدها اليوم .

ومع ذلك فهل سمعنا فى ذلك الحين أن الكتاب قد نادوا بالديموقراطية على انها قاعدة المجد الذى لا يبزه مجد السلاح . وأساس النجاح الذى لم يحرزه أحد قبل الآن ؟ وهل رأينا المؤرخين يهزون أعواد المنابر . على نقيض القاعدة القديمة التى فرضت عليهم الوعظ فى الدور والانزواء فى المعاهد العلمية بجانب العلماء ؟ وهل شاهدنا الروائيين يتحدثون عن الغيب وينبؤون عما وراء الحجب بعد ان كان همهم ينحصر فى سرد الاقاصيص ؟ وهل ألفينا الشعراء يسلكون سبيل الهدى بعد ان كان دأبهم الترنم والغناء والمدح والهجو ؟ لا . لأن

وسطا كوسط عرابى ما كان يسمح بهذا . ذلك بأن الآداب التى كانت تسمى للهتاف والتصفيق وترغب كل الرغبة فى التوجه للجماهير أمست عملا تجاريا بحتا . له نظام نفعى محكم هو فائدة عرابى ومن حوله . ولعمرك انها حالة كان من الواجب أن تستثير عواطف المصريين وتدفعهم الى رفع الصوت عاليا ضد مخازى الآداب الحديدة والآداب المصطنعة النفعية . وواقع أيام زعامة سعد كان من هذه الناحية صورة طبق الاصل من واقع أيام عرابى

الصحافة والمسرح

ولكن الصحافة التى كان من الواجب أن تكون الوسيلة الاولى لترويج هذه السلعة لم تكن لحسن الحظ على انتشار وذيوع يمكنها من ذلك . فبقى الوباء منحصراً فى دائرة عرابى وبيئة العرابيين دون أن ينتقل بقضه وقضيضه الى الخلف .

على انه اذا فات البلد فى ذلك الحين وجود هذه الصحافة المنتشرة فكسبت بذلك اتقاء تماثل الشر وتواليه . إلا أن هذا المكسب قد قابلته خسارة جسيمة هى العجز عن نقل الثقافة الغربية واذاعة النظم الاستقلالية ووسائط تحقيقها أولا فأولا . ونشر المبادىء الحديثة والافكار السامية كلما تمخض عنها عقل ناضج .

ولعمرك أن موقفاً كهذا ما كان يدعو الى التأثر والاندفاع فى سبيل الرقى وانما كان يدعو الى التأثر والنكوص على الاعقاب فى هوة التدهور . وإلا فليدلنا واحد على تلك الهمم والعقول والعبقريات والكفاءات الذين استشهدوا فى دور الصحف وهم متأثرون بأن فى ميدان الصحافة مصدراً لا ينضب من المجد دون الثروة . والشرف والسمعة دون المصالح والشهوات ؟

وهل وجد في المسارح رقي يسمو بالغرائز والاخلاق ؟ بل هل رأيت ما وقع في أخريات أيام لويس فيليب عند ما كان المتعهدون الفرنسيون يكتبون الذين أقبل الشعب على منتجاتهم يتقاضون حصة من ثمن الرؤية على سواء يدفعون تجاري يرونه اذا لم يخرجوا رواياتهم ؟ والقصص ؟ هل رأيت الصحافة وقد شغلت بها ثم هجرتها إلى النقد اللاذع فتولدت آدابه وفنونه سائرة وراء شهوات الجمهور كواقع اليوم حيث يحاول الكتاب الآن أن يرضوا مطالبه وذوقه وإحساساته؟

حتى هذا الشيء البغيض لم يكن في ذلك الحين. حين الجدب الذهني المطلق والجدب العسكري الحجري . فكيف لا يتأثر سعد بهذا الوسط المحيط وقد غرق فيه من ذقنه إلى أخمصه ؟

الموقف الفكري وتحولاته

لو أن الثورة العرابية كانت ثورة فكرية لوجب أن تختلط الحياة العلمية بالحياة السياسية والتجارية أيضاً حتى تألف الحياة العلمية هذا الاختلاط وتجري الاقلام بوصف الواقع والحقيقة بعد وصف الخيال والعاطفة والحماسة . ثم تنتقل من هذه المرحلة فتتناول النفس والخلق . وتجنح بعدئذ بالجهود الادبي إلى الدراسات التاريخية ونقد الماضي وفحص الآثار والفنون في القرون الوسطى والعصور القديمة فحصا كان لزاما أن يبدأ بانشاء لجنة لدرس الآثار التاريخية على نمط ما وقع في فرنسا سنة ١٨٣٧ . ثم تأسيس مدرسة على وتيرة مدرسة أثينا التي تأسست في فرنسا سنة ١٨٤٩ . وأن يتبع ذلك دراسات نقدية في في الادب واللغة ثم دراسة الآداب الاجنبية حتى تكون مرحلة المترجمين الذين لا يعلون العمل ولا يكلون من توجيه سيل جارف من الآداب الاجنبية

نحو معاهد العلم المصرية كي يؤدى الامر إلى تجديد وبعث تاريخى . تنتقل معه النظريات من موقفها السطحى إلى التعمق وسبر غور الحقيقة التى تنتجها الظروف السياسية والطبيعية والوسط على نور العلم القديم .

الفنون

وهل كان فى مصر فنانون فى عهد العرابيين ؟ كلا . مع أن مصر مهد الفن القديم الذى أخذ فنانو الغرب يستوحونه ويستلهمون وها هو ده لاكروا يقول لأحد أصدقائه . « انى أصفق لك طربا وأعجابا من جراء ولوعك بالعصور القديمة . فهى ينبوع كل شىء » ذلك بأن هذا الفنان قد فهم القديم كما فهمه شكسبير واعتمد عليه فى اعادة التوازن للصحة الفنية بعد أن أصيبت بالحمى . فصور كيلوباترا فى سنة ١٨٣٩ .

إن شيئا من ذلك لم يتم إبان الثورة العرابية مع ان الفن من مستلزمات الوطنية بل هو عنصر هام من عناصرها .

الانتاج العلمى

كان من الواجب أن يمتاز عصر الثورة العرابية بالانتاج العلمى عن باقى الانتاج الذهنى امتيازاً واضحاً . ولكن ذلك لم يحصل فقد بقى كل شىء عدما نعم لقد بقى الانتاج العلمى عدما لانعدام الانتاج الفكرى المترتب على انعدام ذيوع اللغات ذيوعا صحيحا .

ان العلم لم يعد فى متناول العاديين من الناس . وهذا ما دعا فى أغلب بلدان العالم الى وضع نظم خاصة للتدريب عليه . وتنظيم إنتاجه الدولى الامر الذى لم يكن له أثر فى عهد الثورة العرابية .

فهل لم يصبح من المستحيل أن يدرس الانسان المجهد العلمى الفرنسى بعيداً عن الجهد الانجليزى والالمانى والايطالى ؟ وهل لا يستعصى عليك التمييز بين الجهود الخاصة والجهود القومية إذا أنت ولجت باب التطبيقات العملية ؟ ألا إن الامة التى ضربت بسهم عظيم فى تنظيم العمل هى امن وحدها التى كانت تدرك النتائج الجدية . فهل من مجهود بذلته الثورة العرفية فى هذا السبيل ؟

مما لا شك فيه ان الحالة السياسية والاجتماعية لبلد ما كانت تساعد مساعدة تقل أو تجل طبقا لجهودها فى تنظيم هذا الانتاج . وتؤدى بهذا البلد حتما إلى أن ينال من نتائج هذا التنظيم بقدر مساعدته فيه . فأى مساعدة بذلها العرابيون فى سبيل الانتاج العلمى حتى ينالوا منه أى قسط ؟

ومع ذلك فان كانت البحوث والاكتشافات العلمية قد لاحت نتيجة لازمة لقوانين التطور العام أو لا ارتباط لظهورها بالتطور الخاص بأمة معينة وانما ارتباطها يكون بسلسلة تطورات عالمية مستقلة تستوجب البحث عن قانون يجمع بين هذه القوات المبعثرة فى العالم . وهذا لا يكون الا بتفهم غرض المقصود تحقيقه من العلم . والمكان الذى تشغله المباحث العلمية فى عالم الفكرة . وحدود مكانها . أى بتوحيد العلم والذكاء العالمى . فاى مجهود صرفته الثورة العرابية فى سبيل البحث عن هذا القانون ؟

لقد قال رينان ضمن كتابه الخطى الذى وضعه فى سنة ١٨٤٨ وأذيع فى سنة ١٨٩٠ « ان العلم يحوى مستقبل الانسانية . فهو وحده الذى يقول لها الكلمة الخاصة بمصيرها . وسيأتى اليوم الذى لا يخضع فيه العقل المستنير بالاختبارات المصادفات ويسير فيه تحت قيادة العلم فى الاتجاه الواضح من الغرض المقصود وستكون آخر كلمة للعلم هى تنظيم الانسانية علميا »

فهذه الافكار وشبيهاتها قد دلت على أن مهمة العلم لا تخرج عن أن تكون

العمل على الغاء سيادة الرجل الطبيعية وإخضاعها ووضع قاعدة يجرى على منوالها فى الحياة العامة والخاصة . أى وضع قاعدة سياسية وخلقية . وهذا معنى قول رينان . « فبأسم الله أسألكم أن تسلموا معى بأن العلم وحده يستطيع أن يمكن الانسان من معرفة الحقائق الحية التى لا يتسنى لنا بدونها أن نحتمل الحياة . ولا أن يكون للجماعة كيان » فبهذه الصفة . وتحت هذا الستار مهد العلم للعمل على التأثير فى الجماعات السياسية كما مهدت الآداب . فهل كان للثورة العرابية نصيب من ذلك حتى يكتسب سعد شيئاً منه باختلاطه مع العرابيين ؟ كلا . فما كان حظ العرابيين من العلم يمكن من العمل على الغاء سيادة الرجل الطبيعية وإخضاعها ووضع قاعدة يجرى على مقتضاها فى الحياة العامة والخاصة . أى وضع قاعدة سياسية خلقية يتسنى له بموجبها أن يعرف الحقائق التى لا يمكن بدونها احتمال الحياة أو يكون للجماعة كيان ولاصحابها ما اقتضاه الاشياء . وهذا الجهل هو ما دفع سعد الى أن يجهر فى مجلس النواب فى قحة تعبير ودمامة تفكير بأنه لا يعرف معنى للجامعة ووزارة المعارف قائمة .

ماهو الرأى العام

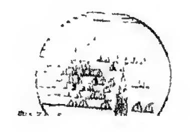
ليس الرأى العام جمهرة من الصيحات والصخب والضوضاء والجلبة والنعيق والنهيق والآلام والحسرة والبكاء والنحيب والدوران واللف . أو الركود حول النفس والغاية والشهوة . وإنما هو مجموعة مؤثرات كامنة فى حركة فكرية علمية أدبية فنية اقتصادية مالية صناعية زراعية تدوى صيحاتها فوق المنابر وعلى جدران المنازل . وفى داخلها . وداخل المدارس والجامعات . وفى أنهر الصحف والمتاجر والمصانع وفى بطن الارض وجوف السماء وفى أغوار الماء وعلى سطحه .

ليلا ونهاراً ويمتد شعاعها الى ماوراء البحار ينافس ويزاحم في مختلف الاسواق. ولهذه المؤثرات قوة مغناطيسية تجذب القلوب الى الامام ودائماً الى الامام. ولها نور يهدى هذه القلوب ويطهرها ويشفيها من الامراض فلا تعتورها حمى ولا يفنيها جمود ولا ألم مهما كان الخطر ومهما اشتدت الصدمات والنوازل. فهل وجدت هذه المؤثرات فى أيام شباب سعد. أيام الثورة العرابية ؟ إن ماقدمناه يدل فى وضوح على انعدام الرأى العام الصحيح . ويثبت أن الثورة العرابية كانت فى نهايتها ذبحة صدرية أزاغت بصر القادة وتركتهم فى أماكنهم جامدين حيارى وعن شئون الوطن لاهين . لا اختيار لهم. ولا حرية لارادتهم . ولا تفهم لحقيقة موقفهم . فمن أين كان لسعد ما يطبعه فى شبابه بطابع الأحرار والمفكرين والمجاهدين الراسخين فى علم القيادة والسياسة والفراسة . وما كان وسط الازهر العلمى الذى تجرد من التبحر فى الرياضة والجغرافية والتاريخ والفلسفة والاجتماع الخ يؤهل واحداً من طلبته فى سنة ١٨٨٠ ليكون زعيما فى سنة ١٩١٩ ومابعدها . ولا سيما بعد أن احتضنه الانجليز نيفاً وثلاثين عاماً طبعوه فيها بطابع الذلة والاستكانة واحتقار الذات ؟

هل كان سعد رجلا سياسيا ؟

يحق لنا بعد الذى قدمنا أن نبحث فيما اذا كان تكوين سعد وفاق غرائز الشيخ ابراهيم زغلول والوسط الازهرى والبيئة العرابية وابتعاده فى بادىء نشأته عن الوسط الراقى رقياً عصريا مما يساعده على أن يكون رجلا سياسياً صالحاً لأن يتزعم على مصر فى سنة ١٩١٩ ؟

ان بحث هـذا الموضوع يتطلب كلمة أولية عن رجال الثورات الفشيلة . وكلمة تمثيلية عن تغلب الطبيعة على الوسط ساعة الخنق أو انطلاق اليد بعد حجر وأسر واعتقال روح.



رجال الثورات الفاشلة

كان محمد من رجال الثورة العرابية . والثورة العرابية اخفقت . وكان من الواجب أن تخفق لان رجالها لم يكونوا أهلا للقيام بها فهل من يخفق في ثورة يصلح لان يقود ثورة أخرى ولا سيما إذا صادق عدو البلاد وانخرط في سلك خدمه خلال جيل ؟

لقد أثبت التاريخ أن فشل ثورة نهائياً يؤدى حتما بمن اشتركوا فيها إلى عجزهم عن القيام باخرى أو قيادتها على أحسن وجه. وهذا قانون نفسي لا منازعة فيه ولا شك بعد أن أصبح علم النفس هاديا في الحكم على الرجال وصلاحيتهم للاعمال التي تتناسب مع قوة الارادة وقوة الحواس وقوة العقل.

ان فقدان الصلاحية للقيادة لا يترتب على فشل الثورة أو العمل المجهد فحسب . بل هناك طول الانتظار والعادة والتطبع كلها مؤثرات في النفس تدعو إلى اليأس والقنوط وخور العزم . وإذا شئت أن تتأكد من هذه الحقيقة فاتل مثلا صحيفة نابليون قبل نفيه إلى جزيرة البا وبعدها أو قلب صحفاً أخرى من صحف الحزب الجمهوري الفرنسي بعد ثورة سنة ١٨٣٠ . وهي ثورة أهلية لم يعقبها احتلال قوات أجنبية ولا ارتماء زعمائها في أحضان عدوهم .

لقد خلا البرلمان الفرنسي من الجمهوريين بعد أن صدر قانون يحول دون ترشيحهم. ولكن إذا كان هذا المجلس قد تجرد من ممثلى هذا اللون السياسى فانه قد اشتمل على متطرفين ديموقراطيين . فضلا عن أن دعاية الحزب الجمهوري كانت متتابعة بلسان « القاموس السياسي » والمجلة الجمهورية » لدوبون ومارامست » ومجلة لرفق للويس بلان . وصحيفة الناسيونال .

كان الحزب الجمهوري قد تضعضع عقب وفاة جارنييه باجيس الكبير سنة

١٨٤١ . وكافينياك سنة ١٨٤٥ وأصحاب نزيلاوراسباى . حتى لقد تسرب اليأس إلى قلوب أشد الجمهوريين حماسا أمام حكومة طال أمد حكمها وأدى الأمر بالجمهوري « لاراجو » في سنة ١٨٤٤ إلى أن يقول لنا نحيبه . « أصرح بأن الحكومة الدستورية الملكية الوراثية هي الحكومة الوحيدة التي أرى أن في مقدورها أن تغرس في فرنسا جذورها وتؤتي ثمارها . » واضطر هيبوليت كارنو في سنة ١٨٤٦ إلى أن يصرح أمام الهيئة الانتخابية بأنه مخلص للنظام الذي أنشأه الدستور المنحة . وأنه يشاطر رأي والده الذي كان جمهوريا ولم يتأخر عن قبول النظام الامبراطوري احتراما لارادة الأمة وفي سبيل حب بلاده . وانتهى به الأمر في سنة ١٨٤٧ إلى أن يصدر منشورا تحت عنوان « المتطرفون والدستور المنحة » أعلن فيه « أن الدستور المنحة لا يعوق الرقي والتطور الطبيعي . وأنه لا يعرقل أي تقدم سواء أكان في سبيل الاصلاح الانتخابي (من ناحية تقدير الأهلية وانقاص الضريبة والانتخاب المباشر من درجة أو درجتين) أم عن طريق مختلف الحريات الفردية الخاصة بالصحافة أو التعليم . أم في سبيل المسئولية الوزارية واختصاص الملحقين . . . انني من هؤلاء الذين كانوا يرجون في سنة ١٨٣٠ قيام الجمهورية ولكنني لم أكن من هؤلاء الذين لا يرضون إلا بالثورة من أجل الحصول على كلمة . فالمتطرفون كانوا إذن يريدون أن تكون الحرية تامة لجميع الآراء . وأن تكون الملكية هي الحكم عند الضرورة للفصل بين السلطات ومنح الحق للغالب من الأحزاب واسناد السلطة التنفيذية له » فالحزب المتطرف كان يرى في الدستور المنحة تحقيق كل ما يريد وما عليه إلا أن يساعد كل حزب يدعو إلى الاصلاح الانتخابي وبنيان الخلق السياسي .

وقد اتخذ الحزب المتطرف صحيفة « لاريفورم » لسان حال له . وادارها

« لدرورولان » وهو محام فاز فوزا ساحقا فى مانس أثناء انتخابات سنة ١٨٤١
ولقد حوكم أمام محكمة الجنايات لنشره خطابه الانتخابى فى صحيفة « كوريه
ده لاسارت » حيث قال لنا خبيه : « إن الشعب قطيع من الاغنام يقوده
بعض الممتازين مثلى ومثلكم . ويطلقون عليهم اسم الناخبين . . . وإذا نهض
هذا الشعب ليطالب بحقوقه التى أجزلها فى غيابات السجون . وإذا هو
جم صفوفه حتى لا يسحقه الشقاء وتقضى عليه التعاسة أو دافع عن أجره
الذى لا يعينه على سد حاجته الحيوية زج به فى ظلام الزنازين . وإذا هو
كتب على اعلامه « قطعة من الخبز أو الموت » كما حصل ذلك فى مدينة ليون
انهالت عليه المقذوفات النارية . وانتهكت الجنود حرمات ما تبقى من
هشيم رفاته . ولكن الشعب هو السيد . ولقد أسماه حملة شعار الحرية بهذا
الاسم أيضاً . جزاء ما أذاع من دين شرعه على أسنة رماح المساواة والاخاء
ان الشعب مسيح اليوم فاذا نصنع ابعثة لا مناص لنا من الاصلاح . فهو
الشرط الاساسى لكل رقى سامى . فليكن اذن كل وطنى ناخباً . وليس فى
المقدور أن يقوم بتجدد إلا إذا تمشى نحو اصلاحات صادقة صحيحة . فالحزب
الديموقراطى قد امتاز على الخصوص بهذه الناحية السامية القائمة على حب الشعب
امتيازاً عميقاً يفوق امتياز الاحزاب التى تمخضها ثورة يوليه سنة ١٨٣٠ .
فالشعب ليس له وجود فى النظريات المدبغة بالانانية . — إن الشعب فى نظر تيير
تمشى يدوسه ويهشمه تحت أقدامه كى يصل إلى غايته وكذلك حزب « بارو »
إنه لا يعنى أيضاً بالشعب . أما حزب « المشروعية » فانه يتكلم عن سيادة الشعب
ولكنه الثعلب يرتدى جلد الاسد » فحكم عليه أربعة أشهر وثلاثة الآف
فرنك غرامه ثم صدر حكم محكمة النقض والابرام ببراءته .

ولقد أعلنت هذه الصحيفة أنها اللسان الناطق بتوحيد جميع العناصر

الديموقراطيه ولا مبدأ لها إلا تطبيق سيادة الشعب، ودراسة الزراعة والصناعة والتجارة والعمل على إرضاء الطبقات العاملة . وتعليم الأهالي واحساسهم وتبيان حقوقهم . وتذكير الشعب بأن مصالحه الحقيقية تفرض عليه توحيد الصفوف والتآخي .

أما الصيغة التي أراد «لدرورولان» أن يجمع حولها صفوف الديموقراطيين أمثال (اتيين اراجو) و(لويس بلان) و (جدفروا كافنسياك) و(كريميون) و « فلوكون » وبيبرلو . ألخ — حتى ينضم اليهم الشعب فهى « مبدأ الاصلاح الانتخابي على قاعدة الاقتراع العام » وهو مبدأ قديم سبق أن قال به كافنياك ولويس بلان فى هذه الصيغة : « إن الاصلاح السياسى شرط أساسى للاصلاح الاجتماعى » وهذا هو الميدان الذى يتلاقى فيه الجمهوريون والاشتراكيون

لقد توارت مهمة الجمهوريين ردحا من الزمن . إلى أن جاء اليوم الذى تجمعت فيه جهود الخارجين على حزب المحافظين مع المعارضين للاسرة المالكة . من أجل النضال والعمل . وحشد القوات الحانقه وتعزيزها بعناصر جديدة من الشباب الطاهر . وفى ذلك اليوم أمد الحزب الجمهورى (هذا الحلف) القائم على سحق المبطلين والمستضعفين والهازئين بحقوق الشعب برجال عديدين ذوى أقدام وحزم وعزم وكفاية تؤهلهم عند الضرورة للقيام بالعمل الحاسم .

وفى الواقع كنت تلمس فى الوجود تقليداً . بل تلمس ايمانا أو دينا جمهوريا هو ذلك الذى اعتنقه شباب يوليو سنة ١٨٣٠ . وهو دين استمد قوة رهيبة من حماس نظرية العواطف الروائية المتأججة فى صدور الشعراء والفنانين كما استمد هذه القوة من تفجر الشعور بتقديس الشهداء الذين راحوا ضحية العصيان الاخير واحكام المحاكم أو قضوا باقى حياتهم فى السجون تنفيذاً للنظام البشع

الذى أتبع فى إطفاء العصيان الذى وقع فى سنة ١٨٣٩ . فجميع هؤلاء الشبان والرجال والشيوخ كانوا وهم فى اجتماعاتهم السرية العجيبة التى عقدوها فى مغاور جبل سان ميشيل وغيرها يستوحون إله الرق والتقدم ويضرعون اليه أن يسدد خطاهم فى سبيل الخلاص وان يؤيدهم بروح من عنده حتى يحققوا الاخاء والمساواة.

تحالف الاحزاب

كانت الحكومة الفرنسية قد بدأت تعطف على حرية التعليم . ولكنها فشلت فى هذا النوع من التحرير الفكرى . ولذلك فان أعداء الرجعة . الماثلة فى ملك خمل فسدت حاشيته وتهدمت أخلاقهم. قد رأوا أن خير وسيلة للاصلاح انما فى تعديل قانون الانتخاب والدستور تعديلا يقضى قضاء مبرماً على حكومة الفرد والرشوة المتفشية فى فروع الحياة الفرنسية .

لم تكن فكرة التوسع فى حق الانتخاب العام حديثة . فمنذ العمل بقانون فى ١٩ أبريل سنة ١٩٣١ قام الاحرار بمقاومته رغبة فى سحق قيوده . فرجال حزب الامرة المالكة القديمة قد اقترحوا تخويل هذا الحق لكل دافع لنصاب الضريبة قيد اسمه فى دفتر الانتخاب منذ عام وبلغ من العمر ٢٥ سنه . وقد أيدت صحيفة « غازيتة فرنسا » وصحيفة « لافسير » هذا الرأى . ولكن الصحيفة الاخيرة لم تكن منتشرة . أما جرأة الصحيفة الاولى فكانت وسيلة للمزايدة لم تلح عليها شارة من شارات الاخلاص .

وقد كان الانتخاب العام المباشر المرئى جزء من برنامج « جماعة حقوق الانسان » وانما كان ذلك لغاية نبيلة هى استئصال الفساد . وابعاد النائب عن أن يكون كما قال « تيلييه » : « سمسار دائرته الانتخابية . إذا حضر جلسات

المجلس قائما ليتثاءب . وإذا انتهت الجلسة هيأ نفسه لاداء مهمته . وهرول من وزارة إلى وزارة لانجاز مطالب ناخبيه »

ولما جاء عصيان سنة ۱۸۳۹ . وتكرر التآمر على حياة الملك خشى أنصار الطبقة المتوسطة أن ينحاز الشعب إلى الفكرة الشيوعية .فتصدى بعضهم لاقتراح تعديل انتخابى يغذى الشعب بامل التدرج فى الاشتراك فى الحكم تفاديا من الشيوعية . فلم يلح هذا الاصلاح هنا انه وسيلة من وسائل الهياج أو الخيال الواجبة الاهمال . وأنما اعتبر واسطة تؤدى إلى توثيق عرى الوفاق بين الشعب والطبقة المالية . ولقد جاش إذ ذاك فى قلوب القادة أمل غامض هو أن يكون المران على الديموقراطية وسيلة إلى ابعاد الروح القومية عن تأليف أحزاب الطبقات . وباعثا على اجتناب نضالها . وممهداً للامة بأسرها سبيل الرقى السياسى والرقى الاجتماعى .

فالهياج الذى نظمه الحرس الوطنى إبان عصيان (سنة ۱۸۳۹ — سنة ١٨٤٠) فى سبيل الاصلاح الانتخابى . وفوز لدرو رولان فى سنة ١٨٤١ كانا مظهراً من مظاهر المقاومة لتلك الفكرة القذرة التى حلت فى مجلس النواب وأدت إلى أزدواج حكم الفرد بالرشوة فوق المقاعد النيابية المقدسة .

كان جيزو والملك لويس فيليب هادئين أمام حملات المعارضة القاسية . ظنا منهما أنها حملات عقيمة جاءت فى وقت غير ملائم . ولقد تصوراً أن احترام الدستور لا يكون إلا فى انحياز أغلبية المجلس لهما . ومما لاشك فيه أن لويس فيليب بعد حكم استمر عشر سنوات قضاها فى الصبر والخداع قد وصل إلى أن يحكم بنفسه وبواسطة وزيره جيزو . حكما يرى معه أنه لم يرتكب ظلماً يستحق عليه التعنيف . ولكن هذا الملك الذى أفلت من أيدى عشرة من القتلة . وفل غارب العصيانات العديدة . وعرف كيف يستخدم ويذل هؤلاء

الذين ظفروا باحلاله محل شارل العاشر عقب ثورة يوليه سنة ١٨٣٠ . قد خال نفسه معصوما من الخطأ السياسى .

لم يقلق بال الملك أمام هجمات الصحافة الفرنسية وصبها إياه . بل كان مطمئنا كل الاطمئنان . وذلك لانه ما كان يقرأ غير صحيفة التيمس الانجليزية وكان واثقا من أعجاب أوروبا به . ويقدر ان السلام العام الاوروبى انما جاء غرس يده . لذلك أبى أن يفكر فى تغيير طريقة حكمه وفى تألف وزارته . حتى لقد صرح لمونتاليفيه بعد أن صارحه بخطر الموقف الذى سببه وزراؤه وسياسة حكمه قائلا : « إنك تريد حرمانى من جيزو . ولكن هذا الحرمان ليس إلا انتزاع لسانى من حلقى »

قاوم الملك كل نصيحة . وأبى الاشتراك فى أى عمل يقلق راحته . حتى ما كان منه متعلقاً بداخلية أسرته . ولذلك ساد البلاط خلال سنة ١٨٤٦ ذلك الخطر الذى شعر الناس بأنه يحيق بالملك من جراء السخط على وزيره والحنق على نظام حكومى مشئوم . ولكن رجال البلاط عجزوا عن أن يقيسوا مسافة الخلف بين الشعب والملك مع أنها كانت تتضاعف طولا وعمقا من يوم لآخر وقصروا عن أن يدركوا أن فرنسا الادبية والسياسية أصبحت بمعزل عن حياة حكومتها غير مكترثة على الاطلاق بمرشها ولا آبهة بمستقبله لما فى أعمال الحكومة والنواب من افتئات على أقدس حقوقها

ومن هنا يتضح الأثر النفسى الذى يحدثه الاشتراك فى ثورة يقضى عليها نهائياً بالفشل كما يتضح أثر طول الانتظار فى الجهاد . فما بال أثر الاشتراك فى ثورة خاسرة يعقبها تعاون مع العدو ومساهمة فى توطيد أقدامه . وعمل على تنفيذ برنامج هذا العدو دهراً طويلا كما كان شأن سعد ؟

تغلب الطبيعة على الوسط

على أننا نستطيع أن نفرض جدلا أن وسط أمراييين كان من أرق أوساط خلق الله، وأن سعداً لم يتم في أحضان الانجليز طوال جيل من الزمن تكون فيه بشكل خاص. ونتساءل ماذا كانت تكون الآثار المترتبة على جبلته وغريزته الجوهرية التي انتقلت اليه من والده العمدة؟

لقد أثبتنا عملياً مما تقدم أن هذه الغريزة لابد وأن تنكشف في يوم ما إذا ما أحرج الانسان أو استثير أو أطلقت يده بعد حجر وأسر. وهنا نرى أن التمثيل أفعل في النفس وأفضل في إقناعها بالحقيقة

تيبير

قال لنا المسيو هنري هوسيه عضو الاكاديمية الفرنسية في كتابه «أثينا وروما وباريس» (ص ٣٠٠ وما تلاها طبعة سنة ١٨٧٩): «إذا الخلف يصدر أحكاما نهائية. ولقد رأت عدالة الاجيال الامبراطور أغسطس الذي سما بالدم وقضت على تيبير الذي سقط بالدم. ولا قبل للاعاجيب المتولدة عن أشجع العبقريات وأقواها حجة على أن تنقض حكمها. وليس المسيو «بوليه» بقادر على ذلك وهو الذي أراد بدراسته تيبير أن يرد الاعتبار العام إلى خليفة أغسطس ورائد الطريقة التي اتبعها مونتسكيو، وهو يقارن بين تيبير ولويس الحادي عشر حتى ختم المقالة لمصلحة رجل روما ولكن «بوليه» قد أبدع رغم ذلك نظرية جذابة. هي «أن القضاء والقدر الذي أثقل كاهل أبطال المأساة الاغريقية القديمة قد أحبط منكب تيبير إحباطا أشد. وهذا القضاء والقدر هو التركة التي خلفها أغسطس» وبعد أن شرح المسيو «بوليه» أخطار السلطة المطلقة التي تحيق بمن ينشئونها طفق يدلل على صحة رأيه في برهان فاقت فصاحته قوة

اقناعه . فقد ذكر تيبير طفلاً وشيخاً . وكهلاً ورجلاً . وصوره اماماً أو [illegible] وقائداً للجيوش وذليلاً منقاداً للسلطان أغسطس وفضلاً وأميراً [illegible] . وقاسياً في أحكامه بعد تتويجه وظالماً مجنوناً ووحشاً ضارياً قبل موته . ولقد تتبعه في أسبانيا وجرمانيا وفي رودس وبونونيا وفي الفوروم وفوق جبل بالاتان وفي حدائق موسين ومغاور جزيرة كابريه . وفي كل مكان . وفي كل زمان وفي كل مناسبة ظهر فيها تيبير فريسة سلطانه .

«ومن الواجب أن نناهض نظريات المسيو بوليه بالأسلحة التي يقدمها لنا كتابه . انه يقول : « لقياس الأثر المترتب على السلطة المطلقة في رجل مفروض فيه أن الطبيعة أنشأته أميراً موهوباً ذا ذكاء واسع . حازماً مثقفاً . منحدراً من جنس عظيم سما تكوينه العقلي والبدني . وتخلق بخلق بارد . واستكمل صحة لا يتطرق اليها الضعف وكان جندياً باسلاً وقائداً ماهراً وادارياً حكيماً تحيط به حاشية طيبة . وتؤيده نصائح أمهر الامهات وأمكرهن . وانشد الحظ وشد أزره في أغلب الاحايين . يندفع بلا جهد نحو العظمة . ونبتت حياته الاولى بجانب السلطة المطلقة . ثم زاولها عملياً . ثم عدل عنها ثم استولى عليها في سن النضوج وانتهى به الامر وهو في سن السادسة والخمسين إلى أن ساد العالم . فاذا كان هذا الرجل قد فسد شيئاً فشيئاً . وخار رويداً رويداً . ثم تحول حتى أصبح في يوم من الايام ملعوناً من الانسانية . وموضع كراهتها . فان المثل يكون حاسماً والبرهان التفصيلي يكون كاملاً » نعم ان البرهان كامل . ولكن المثل ليس حاسماً . إذ يمكننا في سهولة أن نقابل مثل تيبير بمثل يناقضه تماماً . وهو مثل سلفه أغسطس . فاذا كان حقاً أن تيبير قد فسد تدريجياً وتحول حتى أصبح ملعوناً من الانسانية وموضع كراهيتها باستخدامه السلطان المطلق . فكيف يكون « اكتافيوس » بمزاولة هذا السلطان المطلق نفسه قد

صالح تدريجيا وتحول حتى أصبح أبا الوطن ونموذج الملوك ؟ فهل السلطة المطلقة كذلك الينبوع الساحر الذى تحدثت عنه الاقاصيص الفارسية ومن شأنه أن يهب الطيبة الابدية أو المرض العضال تبعاً للاستحمام فيه عند شروق الشمس أو غروبها ؟

ومع ذلك فهل تيبير كان قبل تتويجه الرجل الكامل الذى زعمه هذا البرهان ؟ ان التاريخ ينكر ذلك ، اما ان تيبير كان على وسعه من الذكاء . وعلى تكوين حسن عقلا وجسما . وشجاعا وقائداً ماهراً فهذا ما سلم به . ولكن هذه الصفات لا تستلزم أبداً أن تقترن بقيمة أدبية . ولا بكفاءة أساسية لحكم العالم . لقد انحدر تيبير من جنس عظيم . ولكن أسرة آل كلاود قد اشتملت على الابن الرحيم ، والشيطان الرجيم . فمنهم من أثار حماسة روما بعد أن دحرهم بيروس . ومن طرد جنود قرطاجنة من صقلية . كما كان منهم الوحش الذى قطع الصلة بين مجلس الشيوخ والشعب . ومن حاول استعباد ايطاليا . ومن فقد أسطوله . ومن نفى شيشيرون وأجرى الدماء فى شوارع روما . فتيبير الذى كان إله الشيطان الرجيم كان فى وسعه أن يقلد ... سلفه . فهل كان اداريا ماهراً ؟ من السهل أن نقيم الدليل على العكس إذا نحن أثبتنا أن يده لم تتدخل فى جميع الاصلاحات والتجديدات التى تمت أيام حكمه . ولا فى التوسع فى تطبيق قانون الاعتداء على مسند الملك وجعله شاملا الاحوال السياسية بعد ان كان قاصراً على الشؤون الدينية الخ . الخ . وانما هى اقتراحات ليفيا وسيجان التى أدت الى كل ذلك . بل هى اقتراحات ليفيا على الخصوص تلك المرأة التى كانت بمثابة كاترين ده ميديسيس الرومانية . بل انها بزت الـ لورانتية . وكان لها اكبر الاثر فى نفس أغسطس وتيبير . واستمر نفوذها كذلك فى الحكم الامبراطورى بعد أن أسست الامبراطورية . ان ليفيا كانت الشيطان المؤسس

للمبدأ القيصري . والثورة الساحقة الماحقة للنظم والحريات الجمهورية .

فاذا كان تيبيريوس قد أظهر بعض الخلال الحميدة فى أول فترة من حياته فلأن الخوف من أغسطس وليفيا قد كبح جماحه . ولكنه عند ما شعر بالحرية أطلق العنان لرذائله ونقائصه التى اعتقلت طويلا . والحرية لم تأت اليه إلا فى آخر أيام حياته .

فعندما خلف أغسطس لم يتغير الحال إذ التغيير انحصر فى استبدال سيد بسيد آخر . فقد حل تحكم ليفيا المتهتكة محل سيادة أغسطس . وإذن فتيبيريوس لم يكن حراً . ولم يحكم بنفسه إلا بعد موت أمه . وبعد القصاص من عشيقها الغادر . ولكن أخر أيام حكمه . وهى الأيام التى امتازت باهراق الدماء اهراقا فظيعا وتلطخت بأقبح عار . كانت أيام حكمه الخاص .

فالجرائم الجنونية . وأوحال الفحش فى جزيرة كبريه . هى من عمله الخاص ولا دخل لأى كان فيها .

فهذا الرجل الحسود الحقود الجبان المنافق المتردد . الوضيع فى نزقه المتجرد من القوة بقدر تجرده من الفضائل الادبية . هذا الكلب الذى خضع لأغسطس فى نذالة . وتحمل فى أناة وصبر وذلة فحش زوجه . وقسوة الامبراطور والنفى الى رودس ظلما . ورصد يمينه . يمين القائد على خدمة امبراطور لوث شرفه بالاختلاط بجوليا . وكان فى الوقت نفسه يقسو عليه . ويبغضه . هذا الظالم الرعديد الوحش الذى كان يكبح جماح غلظته ووحشيته . وشهواته الغريزية وكثيراً ما كان يشعر بنير ليفيا وسيجان قد أسرع بعد موتهما الى الاندفاع فى هاوية من أوحال الجرائم والفحش تاركا الحكومة . نابذاً مجلس الشيوخ الخالى من نصف أعضائه . لاهيا عن تعيين قواد للجيوش المتطوعة . وحكام للاقاليم . ساهيا

وعن الدفاع عن أرمنيا ضد البارث . وعن ميزيا ضد الداس ... الحول ضد الجرمان هذا الوحش المتأنق فى بربريته كان يرغم الجلادين على استلاب عفاف العذارى قبل اعدامهم . واذا انتحر سجين حتى لا يقاسى وسائل التعذيب الامبراطورية المبتكرة صاح : « لقد فرمنى كا ... لمرءين » فهل هذا الرجل يبرر قول المسيو « بوليه » : « أن تيبير لم يكن وحشا . ان تيبير كان رجلا مثلنا . وموهوباً كثرمنا » ؟

ان عظماء المجرمين يستطيعون أن يبرئوا أنفسهم فى سهولة كبيرة اذا هم استخدموا كلمة أثقال الماضى التى تذهب جفاء وفى لمح البصر أمام كلمة عقل . واذا نحن تلونا خاتمة كتاب تيبير . لوجب علينا توا أن نفكر فى ابنى فسبازيان : تيتوس . ودوميتيسيان . اللذين عاشا زمانا واحداً وربا هما أستاذ واحد وكان كلاهما ولى عهد مباشراً أعدليحكم شعبا واحدا . ومع ذلك فقد استحق كل منهما أن يلقب بلقب مختلف عن لقب أخيه . فتيتوس قد لقب « بهجة النوع الانسانى » وأما دوميتوس فلقب « عار الانسانية وموضع مقتها »

فتركة أغسطس ليست هى التى جعلت من تيبير ظالما ممقوتا . وانما طبيعته الوضيعة الحقود القاسية . حتى لقد قال فيه تاسيت قبل أن يعرف اثقال الماضى « وفى النهاية قد تردى فى الجريمة والعار معا فى وقت واحد عندما زاول طبيعته فى حرية وأبعدت عنه وسائل الجريمة والعار »

فالغريزة إذا ما أطلق عنانها أو استثيرت وارتفع الرماد الزمنى من فوقها . تجلت بمظهرها الحقيقى . واتضح جوهر الجنس فى عملها . أما مفعول الوسط . أما التربية فهى كما قدمنا « وسيلة صناعية فى مبدئها . تخلق فينا طبيعة ثانية تلوح فى نظرنا أنها امتصت الجوهر . وجبته . ولكنها لا تصل إلى هذه القوة فى أغلب الاحيان . فكم من رجال تحلوا بهذه التربية ولكنها لم تجتث

غير تزاحم . فهى إذن ليست إلا دهانا لماعا ينهار فتينا عندأول صدمة . لتظهر الطبيعة الاصلية بتهورها ووحشيتها . أو قناعتها وفضائلها واقد يدهش الانسان أحيانا من أن يرى شعوبا بلغت أقصى حد فى المدنية والوداعة والانسانية والخير إبان سيادة السلام ثم هى لا تلبث أن تنقلب عقب اعلان الحرب أو عند اصطدام مطامعها بحقوق الضعفاء وحوشا كاشرة . تهبط إلى أحط دركات القسوة والوحشية . ولكنه إذا فكر مليا وعلم أن الحرب ما هى الا عودة لمبدأ الخليقة . وسيادة الهمجية والوحشية . وما وظيفة هذه الحالة إلا ان تبعث تلك الطبيعة البشرية المتلاشية معها . والسابقة على أى ثقافة وتخرجها من مكمنها فى حماستها . وبطولتها . وعبادتها القوة والمطامع الاشعبية ولذلك قد حق قول

كارليل : « ليست المدنية إلا غلافا يستر طبيعة الانسان وهى تخترق نارجهنمية » وهكذا كانت حال سعد . فهو يهدأ ويستسلم إذا ما عجز . ويثور إذا ما اشتد وقوى . أما إذا أغضب وهو فى قوة فانه كان الليث يعتدى ولكن على العزل والضعفاء . واستسلامه واضح فى مفاوضته . وثورته ظاهرة فى معاملته معارضيه فثورته هى التى تتحرك رغم الطبائع المكتسبة . ولا تتحرك إلا إذا أمن وتحرر من أى قيد . فشعوره بالحرية أطلق العنان لرذائله ونقائصه التى اعتقلت طويلا والحرية لم تأت اليه إلا فى آخر أيامه التى هوى فيها بالامة الى درك من الاستهانة بالحقوق وامتهان الكرامة ولا دخل لاتقال ماضى الامة فى كل ذلك .

نيرون

إنك إن قلبت أى صحيفة من تاريخ نيرون تدفق منها الدم حتى خنقك . فلا تكاد تبصر إلا أحمر . ولا تسمع إلا استغاثة . ولا تشم إلا نتنا ولا تحس إلا جموداً وتحجراً . ولا تذكر إلا كلمة لامنيه: « الان التاريخ لأطول عصر دون فيه تهذيب الانسانية »

ولتبرير أعمال هذا الخليع والممثل المضحك الوضيع الذى حمل فوق رأسه تاج روما قد التجأ المؤرخون إلى السفسطة التي أسندوها إلى أفلاطون حيث قالوا « ان الجرائم التي امتازت بالاستبسال والوحشية لا يرتكبها رجال من ذوى العقول بل تترتب على نفوس قوية كريمة أفسدتها التربية . » فهم اذن يستندون على الناحية الطبيعية لابن « اجريبين » . وهى طبيعة أفسدتها تربية معقوتة ثم يشيرون إلى ما تحدثه السلطة المطلقة من عمى وذهول عن الصواب - ويذكرون سبب وجود الدولة . ذلك المعبود الجامد الذى يريد التضحية عن طريق قيام المجازر فى كل ناحية . ثم ينتهى بهم الأسى الى أن يلقوا التبعة عن أكتاف نيرون على مستشاريه . مثلهم فى ذلك مثل خصوم أغسطس ومساعده الذين يضيفون سيئات أعماله إلى اتكالات وزرائه . ولقد ذهب هؤلاء المؤرخون أيضاً إلى كلمة قالها والد نيرون قبل وفاته لتأييد حكم القضاء والقدر الذى أهلك كامله . وهذه الكلمة هى « لاتلد أنا واجريبين إلا وحشاً »

لقد دلل نيرون بأعماله على صحة نبوءة والده . ولكن هذا القول يكون محقاً فى التنبؤ به . لأنه إذا كانت أجريبين زوجه بنت جرمانيكوس هى التى قال عنها دائى كلمته من معان . فليس هنالك من سبب يدعو إلى أن يكون نيرون هو ابن اجريبين دون غيرها . ومع ذلك فاذا كانت الفضيلة . فضيلة جرمانيكوس قد ولدت الرذيلة . رذيلة أجريبين . فلماذا لاتلد الرذيلة فضيلة ؟

أما فيما يتعلق بتربية نيرون فقد وجب أن نتحرى الحقيقة حتى نعلم ما اذا كانت قد ساعدت بالدرجة التى أشير اليها ولذ للمؤرخين وصفها أم لا ؟

ان نيرون الذى انتزع منه كاليجولا ميراث والده قد بقى الى سن العاشرة فى حضانة عمته « ليبيدا » دون أن يعهد بأمره الى مرب أو أستاذ غير حلاق ورقاص ولقد عوده هذان « الميداجوجيان » حياة المواخير وملذات منازلة الوحوش فى المسارح حتى انطبعت تأثرات الطفولة فى أعماقه انطباعاً قاسياً . إذ احتفظ الامبراطور نيرون بأذواق ابن اجريبين الصغير .

فالمائدة ومسرح الوحوش بقيا أداة لهوه ومسرته. واستمر طفره الذى أبعد مطمع. وأقصى مطمح. ولكن هذه التربية التى تعلقت بالرياح والمصادفات قد انتهت بزواج اجريبين من كلود. وفى سن الحادية عشرة كان لنيرون استاذ جديد هو الفيلسوف سينيك.

فهل كان هناك أكفأ من سينيك لتهذيب قيصر الغد وتكوينه واعداده لممارسة السياسة؟ وهل كان محقاً ذلك الذى قال ان تربية طفل على يد هذا الفيلسوف كانت تربية فاسدة مشئومة؟ ان معلومات نيرون كانت تنهض دليلا على عكس ذلك. فقد كان على أتم تثقيف وأكمل تعليم. مولعاً بالفنون. مغرما بالآداب. حتى رأيناه فى الخامسة عشرة يرتدى ثوب المحاماة ويترافع باللاتينية عن البولونيين. وباليونانية عن سكان رودس وتروادة.

واذا نحن صدقنا تقليداً من التقاليد الرومانية علمنا أن الرومانيين قد أسفوا على نيرون وهم يذكرون أمداً طويلا نعمة الخمسة الاعوام الاولى من حكمه حيث ساد الهدوء. وعمت العظمة. ولكن هذا التقليد لايشرف الرومانيين فاذا كان الامبراطور الجديد قد وعد بأن يسلك سنة أغسطس ويحتذيه مثلا فى أعماله. واذا كان قد رفع عن عواتقهم شيئاً من الضرائب. وسن قوانين تحتم الاقتصاد واجتناب الترف. واذا كان قد عاون أعضاء مجلس الشيوخ الفقراء بماله الخاص ونفذ مشروعات عظيمة فى المدينة. واذا كان قد أمضى حكم اعدام وهو يقول: « لقد كنت أريد أن لا أعرف القراءة والكتابة » فان كل ذلك لايمكن انكاره ولكن يجب أن لا ننسى ان أول عمل من أعمال حكمه كان قتل سيلانوس ولا جريرة له إلا أنه من أقارب « كلود » وبعد ذلك بأقل من عشرة أشهر أمر بأن يتجرع بريتانيكوس السم أمامه. وهو شقيق

زوجه وابن والده بالتبني وصهر والدته . ورفيقه في الطفولة . وقبل أن تنتهي الخمس السنوات الاولى من حكمه كان قد أعدم أمه أجريبين . فهذه السنوات الخمس قد بدأت بالقتل وانتهت باستباحة دم الام . وهذا هو مجد هذه الفترة

لم يكن قتل اجريبين باول خطوة قطعها نيرون في سبيل الاجرام . ولكنها كانت أجسم خطوة وأبشعها . فمنذ مأساة « بايا » لم يعرف نيرون أي قانون ولم يعترف بأي قانون ولم يخضع لاي احساس انساني . ويلوح انه ذعر من هول هذا الاثم الفاحش فأراد أن يمحو ذكراه بارتكاب آثام جديدة لتذهب ذكرى احداها في طيات ذكرى الاخرى . فغسل يده التي لوثتها دماء والدته في بحر مسجور من الدماء . وهكذا بدأت سلسلة فواجع نيرون . وهي مأساة قامت على قاعدة : « دعني اقتل فاذن أحكم » فلقد اعدم اربعمائة عبد برىء في يوم واحد . وسم بيروس . وذبح سيلا وبلوتوس . وخنق البائسة كلوديا في حمام ساخن بعد أن طلقها واتهمها بالزنا . والقى الى الوحوش قطعانا من المسيحيين . واستخدم ثلاثة آلاف شهيد . كفنوا أحياء في لفافات دهنية في إضاءة شرفته المسرحية . وعذب الممثلة المضحكة ابيكاريس حتى ماتت . وطوح برأس لاتينوس . وانتحر بيزون وسينيك بقطع الوريد . وقطع عنق سوريوس . وسولبيسيوس . واسبر وكنتيانوس . وسيفينوس . وسنسيون . أما الشاعر لوكان والقنصل فستينوس فقد قطعت أيديهما وأرجلهما وترك الدم ينزف الى أن ماتا . وقتلت بوبيا وهي حامل بلكزة من قدم . وقتل سيلانوس . وانتحر أنتريوس . وبيت اوستوريوس بيده الخنجر في صدره نفسه وأغرق سيرپالوس وكرسينوس وميلا . ومات تراسيتاس وبترونيه في الحمام والشرايين مقطوعة تتدفق منها الدماء . وأعدم انطونيوس . وكذلك بولص وصلب بطرس . وأغمد كوربولون سيفه في أعماق ذاته . ومات الأخوان سكريبونيوس معا . وقتل كريسوس . وفي

النهاية جاء دور نيرون نفسه . فقد خانه أنصاره واضطهدوه وطاردوه كالطير الجارح حتى تعب وانهك وحرم الماء والغذاء . ولما فقد شجاعته أمام الموت سأل بعضهم أن يقتل نفسه كي يتشجع ويقدم على الانتحار وهو الذى رأى على أعينه كيف نفذت أحكام الاعدام التى أصدرها . ثم قضى الامر وبيت الخنجر فى صدره بمعاونة معتوقه « ايبا فروديت »

لقد كان نيرون جديراً بموته أبشع من هذا الانتحار الذى أرغم عليه . انه كان خليقاً بأن يقاسى العذاب والعار الذى قضى به عليه مجلس شيوخ خليفته الامبراطور « جلبا »

ولكن موته جاءت عنوان حياته . فقد قضى كما عاش . مجرداً من الشجاعة ومن الارادة . بيد انه من الواجب أن نقر بان نيرون كان فى كل ذلك خاضعاً لسلطان خارجى دون سلطان نفسه إلا أن هذا لا ينتقص من بشاعة أعماله

إن نيرون. هذا الحاكم المستبد المطلق. لم يعمل بارادته إلا نادراً . فقد كان خادم مطامع الجميع وشهوات الجميع . وليس هو الذى أنشأ القاعدة القائلة « القتل هو الحكم » ولكنه طبق هذه القاعدة دائماً أبداً فى غش لا يعرف للضمير وخزاً ولا تأنيباً ، وماذا يهم والضعف أخش الاغلاط التى يرتكبها زعيم أو ملك. فسواء ارتكب نيرون جرائمه لحساب نفسه أو بتأثير أساتذته ومستشاريه فانها ارتكبت باسمه وهو المسئول عنها أمام الخلف المنتقم

هكذا قال « هنرى هوسيه » فى كتابه « أثينا وروما وباريس » عن نيرون (ص ٢٠٧ وما بعدها) وهذا أقل ما يجب أن يقال فى سهد . مادمنا لا نجد فى كل صحيفة من صحف تاريخه دم أفراد أو نتن أفراد . وانما نجد دم أمة أراقه . وحياة أمة أزهقها . ونتن أمة ملأ الاجواء . وأفسد الهواء . وقد كان أقدر الناس على اجتناب العمل على كل ذلك منذ الساعة الاولى لزعامته .

لقد انحدر سعد من صمدة . وتربى في وسط الكتاب ووسط القرية خلال مهدي محمد واسماعيل . ولما بلغ السادسة عشرة من عمره اندمج في وسط الازهر . ومهما كانت مقدرة الشيخ المهدي العباسي . ومهما كان سلطان الشيخ أبو النجا الشرقاوي . ومهما كان سحر الشيخ محمد عبده . فانهم جميعاً ما كانوا يستطيعون أن يغيروا غرائز سعد . ولقد وقفوا أمامها عاجزين كما عجز سينيك الفيلسوف عن تغيير غرائز نيرون فهذا شب حلاقا يقص الاوردة والشرايين وينتزع الارواح . ويجز الرقاب . ويعلن أن القتل هو الحكم حتى انتهى به الامر إلى أن رقص رقصة المذبوح . وذاك شب صمدة وفقيها . يحارب بسيف ذي حدين يقبض على سنه فيدمى يده ولا يصيب غريمه . يفتى الفتوى بهرجا وزيفا . ويلبس الحق بالباطل تضليلا وغباوة . ويترجم عمله عن أن الحكم هو التخريب والهدم . والسيادة هي استغلال النفوذ والقاء المعارضين تحت الردم . حتى انتهى أمره إلى أن أصبح وجوده زهوا وباطلا . وأمسى الزعيم كذبا عاطلا ومعطلا

يجرأ البعض على أن يمشي إلى الناشئة على غير استحياء . ويسعى اليهم على خفش لاليفهمهم وانما ليخدعهم بأن سعدا كان فخر مصر في ناشئته الاولى . وفي عهد كرومر . وفي أيام مصطفى كامل . وقبل الحرب . وإبان الحرب وبعدها . كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا . فما كان سعد في ناشئته الاولى إلا سهما رشقه العرابيون في فؤاد مصر . وما كان بعد ذلك إلا شؤما على مصر . رأيه منكود . وفكره مردود . وحجته على هامة مصر كالسيف . وبرهانه على الامة حيف . كان للاحتلال نصيراً . وبأعلان الحماية ناصحا ومشيراً . ولاستقلال مصر نكيراً . ولحريتها ساحقا . ولكرامتها ماحقا . وإذا كان قد قضى في القضاء دهراً طويلا بعيداً عن أن يظهر في ثوبه الخلق . وعادات النفاق والملق .

فلأن للقضاء كوناً خاصاً . لارقابة فيه إلا الذات على الذات . وإلا الضمير على الضمير .

إن صدقي لم يقتل شيوخا ولا نوابا . ولم يرد أصدقاء ولا أحبابا . ولم يهدم أنصاراً ولا أعداء . ولم يكفه ثلاثة آلاف مصرى بلفافات من الدهن ليضىء بهم مسرحه . أو يستصبح بهم فى ليله حتى يزداد سروره ومرحه . ذلك بأنه كان أجبن من نيرون . ومن كان أجبن من نيرون يستحى من أن يقتل الناس فرادى بالسلاح ويستحى من أن يقاتلهم بالاتفاق مع أرلند والجنود والكاليين . واكتفى وسعه أن يقتل أمة بالورود و الرياحين وبالنقود دون السكين فقد نثر الورد على الأمة حتى خنقها . وكفنها بلفافات من ورق البنكنوت الذى تبرعت به فى سبيل انقاذها . وأضرم النار فيها لتضىء السبيل أمام الانجليز وتجتاح كل عقبة فى سبيلهم حتى يهتدى خطاهم الى تحقيق آمالهم . وتسرع فى تنفيذ مشيئاتهم .

ولكن صدقاً إذا امتاز على نيرون بأنه خنق أمة بسعر ضلاله . وإذا اختلف عنه بنعومة وسائل وحشيته . وإذا فاقه فى جبنه وفقدان شجاعته وانعدام ارادته فقد اجتمع معه فى أنه كان متأثراً بسلطان غير سلطانه . وضمير غير ضميره . وارادة غير ارادته .

لقد دفعه صبره مصطفى فهمى وهو على رأس لجنة تأسيس الجامعة الى أن يتركها حتى تنهدم فتنحى ليكون وزيرا ودفعه دنلوب إلى مطاردة العلم حتى يسحق . وإلى منازلة اللغة العربية حتى تمحق وبذلك حال دون انتشار العلم وحصر المتعلمين فى دائرة ضيقة يمكن إغواءهم بالوظائف واضرام جمرة المطامع فى صدورهم مع أن أمة محتلة يجب أن يخرج شبابها ورجالها جميعاً على وجودهم حتى يكون لهم وجود وكيان . ثم استفزه رشدى وعدلى فيما بعد ليكونوا زعيما .

واقتاده الانجليز في النهاية ما كما يأمره.

لقد خلق سعد زعيما يهدم . فحطم المعنوى بكافة فروعه . فى أيامه بدأ تهافط الارادات حتى سقطت . تهدم الخلق حتى انهدم . وتراخت الغيرة حتى أنعدمت . وباء الاستقلال بالخسران حتى أمسى هباء . وقديما بدأ وزارته فى الحقانية بهدم الحرية عندما أيد تنفيذ قانون المطبوعات سنة ١٩٠٩ فى شدة وقسوة . ووضع قوانين الاتفاقات الجنائية فى سنة ١٩١٠ الخ وفى عهد زعامته احتفل بدفن الحرية تحت ستار حرية المظاهرات . وبدفن الضمير ببسط الرقابة على القضاء . فهو المسؤل عن كل ذلك أولا وأخيرا أمام الخلف المنتقم . فهل يصح لنا أن نقول بعدئذ أن سعداً كان الرجل السياسى والوطنى ؟ .

ماذا كان سعد؟

لا يمكننا أن نمثل سعداً إلا بهيروسترات . فكلاهما جن بالشهرة دون العظمة فمنذ ٢٣٩٥ سنه ارتكب هيروسترات جريمة من أفظع الجرائم هى أضرام النار عمداً فى معبد « ديانا » الالهة اليونانية بأيفيز . فمن كان هيروسترات ؟ ولم أضرم النار فى هذا المعبد الأثرى العظيم ؟

يقول المؤرخ وفاق روح الاسطورة أن هيروسترات كان عبداً أو اجيرا أو ممتوقا أو رجلا غامضا خامل الذكر . نهش نفسه التعطش القاسى للشهرة ولما أعيته الحيلة ولم يستطع أن يكشف عن وجوده ما انسدل عليه من حجب الظلام وخمامن كده وجهوده المتواصلة . أخذ يتطور من رغبة إلى رغبة . ومن أمل إلى أمل . ثم من خيبه إلى خيبة . ومن يأس إلى يأس حتى استولى عليه جنون الكبرياء وذهول الثورة فى سبيل تحقيق المطامع

لقد وقف هيروسترات إلى جانب المعبد وأخذ يناجى نفسه ويشجعها

شكواه . ويذكر آلامه . ويثير آماله الخائبة . وأمانيه الفشيلة . ويخور مطامعه الحاقدة . ثم أنشأ يفكر فى أى عمل . وأى منهج . وأى مسلك . وأى جنون يمكنه من تحقيق مطامعه وإنجاز شهوته . وإذاعة شهرته . وبينما هو كذلك استوقفت أنظاره عظمة المعبد وأطاشته روعته . ثم استغواه الشيطان وصاح وأزمه الكلب ترعى عقله كالمألوق: « لا رطن اسمى بحريق معبد ديانا » . وقد كان ذلك والناس يترنمون مع الكهنة بمدح هذه المعبودة . ويرتلون آيات عظمتها ومجدها وإحسانها .

ولما جاء الليل وخرج الناس من المعبد ينسلون . كشف هيرو ستراث عن خبيئة نفسه . وانزلق تحت جنح الظلام إلى بيت التقوى واله لاح يعبث وبيده المشعل . وسرعان ما غشى الدخان المعبد . وزمجرت عواصف النيران وأخذت ألسنتها تعبث فى كل مكان . فكان كل شيء طعاما بشماظها . وتداعت العمد وخرت . وتساقطت السقوف فوق أنقاض الحوائط . وتمت الجريمة . ولم يبق داخل المعبد غير الذكرى . ولم يظهر من الخارج غير أكوام وأطلال من الركام . ووقفت أجواق القسوس فى يأس وحزن ترتل أناشيد الحنة وهى تبكى المعبد . وطفق المتعبدون يكلون لله أمر الانتقام من المجرم على فعلته الشنعاء .

ولكن البوليس التى القبض على المجرم دون أن يعالج فرارا

لقد قام بمهمته . وماذا بعده من الحياة . وقد أصبح خالداً .

وعندئذ اجتمع مجلس الولايات الايونيونية . وعذب هيرو ستراث حتى يفصح عن بواعث إثمه

فأجاب هيرو ستراث فى كبرياء وعجرفة . انه اقترف جنايته حتى يبقى أبد الدهر ذائع الصيت والشهرة فحكم بالاعدام على المجرم الاثيم . وقبل التنفيذ تلى عليه المرسوم الذى أصدره البرلمان (الديت) قاضيا بحكم الاعدام على من

يذكر اسم هيروستزات اللعين أو يشير اليه . فبم أجاب على منطوق قضاته . وأى نشيد أعلن به فاحش خلوده ؟

لقد حكم بالاعدام على المجرم ولكنه لم يندم . بل فاخر بجرمه العظيم . وباهى بإثمه الشنيع . ونوسم أمام قضاته ان الزمن سيضرب حكمهم بسيف البطلان . وجعل يقول : « لقد انطبع اسمى الآن بحروف من نار على خرابات معبد ديانا . وستمضى القرون الطويلة وايفيز الجميلة قاعا صفصفا . وساحلا بلقعا مهجوراً منبوذاً وديانا تهيم على وجهها فى كل مكان خارج معبدها . وسأكون خلال هذا الزمن ذلك الشهير الذى ارتفع اسمه فوق الاسماء وارتسم بحروف من نار فى كبد السماء لينير الاكوان والاجواء . وستبقى ذكرى هيروستزات طالما بقيت ذكرى معبد « ايفيز » وذكرى « الآلهة ديانا » وذكرى أرض الاغريق القديمة

وهكذا كانت حال سعد . فالمؤرخ واثق كل الثقة أنه لم يكن إلا ابن عمدة تولى العمدية فى عهد الاستبداد . ثم تخرج من الازهر أيام انحطاطه العلمى فهو اذن نشأ غامضا خامل الذكر . ولكن انحداره من الشيخ ابراهيم زغلول قد جعل فيه نوعا من الطموح الوحشى تكبح جماحه قسوة الجبن الذى أثقل ماضيه . وقد أضرم نار هذا الطموح الكبير الحزين اختلاطه بالعرابيين الذين لم يعرفوا الثورة للفكرة وانما للوظيفة والمنصب فنشأ هذه النفس الجبارة الخوارة تعطش للشهرة فاسق متشرد هربيد هدام فلم يستطع سعد أن يرفع عن وجوده ما أنسدل عليه من سجوف سوداء رغماً من كده وجهوده المتواصلة . وعندئذ أخذ يتعاور من رغبة تتحقق ثم تخيب . ومن أمل يسطع ثم يزور ويغيب ولما جاء دور الجمعية التشريعية بعد ما يشبه الاقالة من الوزارة . طفق يتنقل من خيبة إلى خيبة ومن يأس إلى يأس إلى أن دفعه عدلى ورشدى إلى قيادة الثورة وهو غير أهل لها وعاجز بحكم الزمن وعلمه وتجاريبه عن ادارتها

فأجاءه جنون الكبرياء والعظمة وذهول الاهتياج في سبيل تحقيق المطمع.

لقد وقف سعد إلى جانب مصر وجعل يناجي نفسه ويبثها شكواها. ويثير ذكرياتها وبلواها. ويردد آلامها ومناها. فيحرك الشجن خواطر أيام المحن. ويؤجج الحزن نيران الاحن. فتخبو مطامعه الحانقة وتخونه. وتعلو الكآبة وجهه. والغيظ يتفجر من عينيه. وهو في محرجي من التفكير والتدبير. التفكير في العمل. والتدبير في سبيل المسلك المؤدي الى تحقيق الغاية والمقصد. وما هو إلا أن أصيب بجنون ظن انه أسهل وسيلة إلى إدراك الامل. واجتناب الفشل. واذاعة الصيت. وكسب الشهرة.

لقد استوقف نظره الجمع الحاشد من حوله. فخالهم رجالا يشدون أزره حوله وطوله. وطفق يسحرهم حتى حملهم على أن يتقايؤوا عقولهم ليرضوه ويستفرغوا كرامتهم ليرفعوه. ويبذلوا حياتهم لينقذوه. وخلق لهم من نفسه صنما معبوداً. ومنهم أدوات وجنوداً. يسخرهم في لهوه ولعبه. ويستعين بهم على إرضاء حنقه وغضبه. ولكنه تصور مع هذا الخضوع. وتوهم مع هذه الذلة والخنوع. انه لا يأمن شر هذا الجند المستضعف إلا أن يغالبهم على غرة فيغلبهم. ويصارعهم غلة فيصرعهم. وكأننا به وقد صاح «فلتمت مصر ولأعش أنا» وهذه أعماله ناطقة كلها بهذه البديهية

وبينما أغلبية الناس يترنمون مع الكهان بمديح هذا المعبود. ويرتلون أناشيد عظمته ومجده واحسانه وبينما انجلترا تطلق دخان سياستها حجبا تسدل على الحق. وبينما رجاله يهجعون من شدة الاعياء ترتب على مجاهدة النفس في اقامة شعائر الولاء وفروض الطاعة لسعد. واذا به يخرج وبيده المصباح الخافت ليصب الزيت منه على أجساد أمته وكأنه يباركهم. ولكن لم يمض زمن يسير حتى غشى الدخان سماء مصر. وزمجرت عواصف النيران وأكلت

السنتها كل مكان . فتداعت العمد . وانقضت على الانفس وتساقطت السقوف على الانسان والحيوان . وراح كل شيء طعمة بشمة الهول وتمت الجريمة ولم يبق داخل مصر غير الذكرى . ذكرى الاطهار طالبوا بالاستقلال واجلاء الاحتلال

ولقد خط سعد على وجه من قبر مصر العام . « هنا نقم أمة كانت حية فى سابق الأزمان » وعلى وجه آخر « أبد الامة التى تثق بك تسد وتحكم » وعلى ثالث « اجعل من أصهارك جلادين . ومن أنصارك سجانين . ومن معارضيك شهداء » . وترك الرابع خاليا ليسطر عليه « وهنا دفن جلاد أمته »

وأما من الخارج فقد انهدم الزخرف وضاعت أسس السيادة . وها هى اليوم أجواق الكهان فى يأس وحزن . ترتل أناشيد اللعنة وهى تبكى مصر . وهام عباد الله يكلون أمر الانتقام الى الله .

ولقد وقف سعد جامداً فى مكانه . لايعالج قرارا خلال سنوات انقضت بعد اشهار افلاسه الادبى . ولقد وقف هذا الموقف بعد أن أدى مهمته وأصبح لايهمه من الحياة شيئاً . لانه أدرك الخلود وقرن اسمه بحريق مصر . وهل من حريق أشد هولا من أن يسلم لانجلترا فى الوطن عندما تحدث مع ونجت فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ وعندما فاوض ملنر فى سنة ١٩٢٠ . وعند ما رضى بتصريح ٢٨ فبراير نهائياً عقب تحالف الاحزاب فى سنة ١٩٢٦ واعلان سياسة الوفاق التى قررت اعتماد تصرفات الحماية باقرار قوانين الحماية وقوانين التضمينات . والتعويضات والاجتماعات والمظاهرات . ووضع جميع المشروعات القومية فى سلة المهملات وبعث العمل بتلغراف جرنفل عند ماخضع وارتضى وهو زعيم الاغلبية أن يمين عدلى وثروت رئيسين للحكومة بالتتابع . وعند ما أعلن فى غير خجل أنه يريد حكومة زغلولية معنى ولحما ودما وروحا . ليهدم التقاليد ويسحق الكفاءات ويدهور الاخلاق ويربى الفساد ويعود الناشئين على الاجتراء على تقويض الجنسية وإقامة الشخصية الذاتية مقامها وما الى ذلك مما يمكن

الاستشهاد به على صحة تدعيم الحماية على يد سعد مما سيجيء تفصيلا ونصاً؟

لم يستطع مصرى أن يجذب سعداً كى ينتزع منه أسرار بواعثه على ارتكاب اثمه . اثم شراء الناقة وفى رقبتها ذلك الحداء المأمون يعلى من قدرها ويسمو شمنها حتى يجعله عدل ثمن وادى النيل .

ان سعداً لم يكره على الاعتراف وانما اعترف فى كبرياء وصلف وعجرفة بانه اقترف جنايته ليبقى أبد الدهر ذائع الصيت والشهرة . يدوى ذكره فى جميع الأنحاء ويعلو اسمه كل الاسماء

وليس لك فى سبيل التحقق من ذلك إلا أن تختبر مواقفه وتسمع « الطقاطيق » التى يردد بها هذه المواقف وترى تسليمه المخزى المريب كقوله «من علامات اذن الله بالنجاح ان تولينا الوزارة فى الوقت الذى تولى فيه حزب العمال مقاليد الحكم فى انجلترا وهل عندكم تجريدة دلونى على السبيل . والاستنكار شيء والتنفيذ شيء آخر . والانجليز خصوم شرفاء معقولون . ولانجلترا فى مصر مصالح لاتتعارض مع الاستقلال الخ . فهل كل ذلك لايحمل على الاعتقاد بان الثعلب كان دائماً يحاول ارتداء جلد الاسد ليسود ويحكم ويعمل للشهرة والخلود ما اشتهرت انجلترا بضم وادى النيل على يديه . ويخلد التاريخ بقاءها فيه . أو بمفاوضات تقر الامر الواقع وليس لاخطارها من دافع ؟

غير أن هناك فارقا بين هيروستراث وبين سعد . هذا الفارق هو أن نواب الولايات الايونية قد أصدروا حكمهم على الاثيم . أما سعد فقد أفلت . ولكن لاعصمة له من قصاص الله . وقضاء الاجيال المقبلة ولا يمكن أن تكون قوة انجلترا سبباً فى عذره فقد كانت سياسة مصطفى كامل خير قدوة له

على أننا نرى من الواجب أن نبحث فيما إذا كان هناك عامل آخر قد دفعه إلى هذا التدهور . فاذا وجد وجب أن نتحرى هل هو من الظروف المخففة أم من الظروف المشددة أم من تلك المانعة من العقاب ؟

لقد كان سعد متشككا بدافع الوراثة إلى حد بعيد . لأن العمدة يريد دائما أن يرضى كل فرد أو يظهر بمظهر من يريد إرضاء كل فرد . ثم هو في الوقت ذاته يرضى كل شيء . أو يظهر بمظهر من يرتضى كل شيء فيؤول أمره إلى تعود ذلك حتى يصير الامر عادة تتحول إلى غريزة تنتقل بالوراثة ولقد كان وسط المرابين ووسط الازهر ومدارج رقى سعد كالطمى اكسب تشكك سعد الوراثى خصبا ونماء وقوة . فهل كان سعد مسئولا عن عمله أم غير مسئول؟ وإذا لم يكن فمن المسئول؟

سعد في نظر أنصاره

يرى المعتدلون من أنصار سعد أنه رجل الذكاء والارادة والفكرة . وأما المتطرفون فهم لايتورعون عن أن يخلعوا عليه القاب النبوة . والربوبية . فهو أما أبو الحرية أو أبو الاستقلال أو المنقذ . وأما أنه مبرىء المقعد والمريض . ولقد اشتد هذيان الحمى على البعض فجعل يقول « الشرك بالله ولا الكفر بسعد » وإذا نحن أثبتنا أن المعتدلين لم يصيبوا كبد الحقيقة أنهار ادعاء المتطرفين من تلقاء نفسه ، وبعبارة أوضح إن سعدا إذا لم يكن زعيما بالمعنى الصحيح تزول عنه صفة النبوة ويسقط عنه وصف التأليه .

لو أن المعتدلين من السعديين لم يجهلوا علم النفس جهلا تاما لكفوا عن الاشادة بذكاء سعد وإرادة سعد وفكرة سعد .

فالذكاء إذا تخطى حدوده الطبيعية بموجب قانون الوراثة وحدود الاكتساب بموجب قانون الوسط . جعل شعلته تلتهم كل شيء . وافضى بحكم قانون المقاصة بين المواهب إلى اعدام كثير من المواهب أو أدى بحكم المشاهدات والتجاريب الطبية الى الارتباك والتردد والتشكك والشقاء وأما من ناحية

الارادة فنشهد بين يدى الله أن إرادة سعد كانت حديدية . ولكنها إرادة لم تستخدم إلا فى ميدان السوء . هذا إلى أن الارادة لادخل لها فى تكوين العقيدة . لان مهمتها علمياً قاصرة على الاحتفاظ بالعقيدة بعد تكوينها وسنبين ذلك تفصيلا عند الكلام عن مهمة الارادة . وتكوين العقيدة

وأما أن سعدا كان رجل الفكرة فقول مردود . لان الفكرة علمياً هى أفراز المخ . ولا يمكن أن يكون التدليل على عكس ذلك بتطبيق نظرية السلك التلفونى . لان هذا السلك موصل للصوت لا مولد له فاذا كان المركز العصبى حيث تقيم الفكرة قد تهدم . فلا مناص من انعدام افراز الفكرة . أى انه إذا مات مخاطبك كف سلك التلفون عن نقل صوته اليك وكذلك إذا فسد مخ الانسان .

أن المخ غدة تؤدى وظائف عديدة مختلفه . كالكبد والكلى الخ . وافرازات هذه الغدة تختلف كافرازات الغدد الاخرى تبعاً للنوع الحيوانى واليك برهان نستخلصه مما نسميه الغريزة .

خذ عصفوراً ساعة فقسه . وربه بعيداً عن أى عصفور . ثم تعال بعد أن يشب ويكبر لترى هذا العصفور يصنع عشه على وتيرة اسلافه العصافير . فمن علمه ذلك ؟ أن الذى علمه ذلك هو بلاشك مخه الذى يفرز الفكرة كما يفرز الكبد مرارته وكما يؤدى كل عضو من أعضاء الجسم الانسانى وظيفته وفاق قانون الوراثة

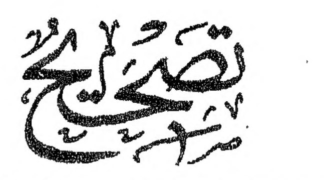
وهل حلم ليس دليلا على افراز المخ للفكرة ؟ إن غدة ما يجب أن تفرز بلا انقطاع وأذن فالنوم لا يؤدى إلى توقف هـذا الافراز . والغدة التى تفرز كثيراً أو قليلا أو فى غير كفاية هى غدة مريضة . وهل لا يكون المخ مريضاً طبياً عند ما يكون افرازه زائداً عن المألوف أو عند انعدام الافراز فيتولد عن ذلك الجنون والانجذاب والبله والعته ؟ لقد كان ذكاء سعد مفرطا وكان تولد أفكاره زائداً عن الحد الطبيعى فتضاربت وتباينت فى غير حساب

لم يعترف سعد فى حياته بأنه مصاب بالبله أو العته أو الجنون . ولكنه اعترف رسميا أنه رجل لا رأى له ولا عقيدة، متردد متشكك تكيفه الوظيفة وذلك فى محضر الجمعية التشريعية الرقيم ١٩ يونيه سنة ١٩١٤ حيث قال « انى كنت قاضياً . وكنت وزيراً . والآن أنا عضو بينكم . وأحس من نفسى أن شعورى كان يختلف باختلاف مركزى . وكان لى فى كل مركز شعور خاص ومع ذلك كنت حسن النية فى كل المراكز التى شغلتها كما ينطق بعضكم الآن سعادة الوزير بحسن النية ويقول انه يعدل بينكم إذا فصل فى أمركم ولا يحيد عن الحق قيد شعرة . كنت كما قلت لكم فى كل مركز لى رأى . ولكن هذا تأثيراً توسط

« اخوانى ! عملت وأنا وزير عملا لو عرض على الآن لكنت أول المنتقدين عليه والمعارضين فيه بكل قواى . عملت لظروف بررتها فى ذلك الوقت أمام نفسى كما يبرر اخوانى أعمالهم الآن . وكنت حسن النية كما أنهم حسنو النية ولكن لو عرض على مثل هذا الامر الآن أراه خطأً جداً وأتألم له غاية الالم

أمامنا مثل وهو قانون المطبوعات فانى كنت معارضا أولا فيه وفى اصداره ثم اشتركت بعد ذلك فى اصداره . ثم ندمت على هذا الاشتراك . ولكنى وقتما اشتركت فى اصداره كنت مقتنعاً بأنى لاحظت ظروفا يجب على ملاحظتها وشاهدت بعينى تطبيق هذا القانون . واشتركت أيضاً فى تطبيقه . هذا الاشتراك فى مجلس النظار هو الذى يخيفنى من أحكامه بصفة كونه محكمة » قال سعد هذا القول دون أن يعبأ بالحكمة الخالدة التى القاها مصطفى كامل بقوله « لو انتقل فؤادى من الشمال إلى اليمين أو تحولت الاهرام من مكانها المكين لما تغير لى مبدأ ولا تحول لى اعتقاد »

فسعد بهذا التصريح قد أقر بأنه كان فى جميع أدوار حياته رجلا حائراً متردداً متشككا فى النهاية . فما هو التشكك وما هو أثره ونتائجه ومداه وعلاجه ؟ هذا موضوع الجزء الثانى من « الفاتحة » مع تطبيقه على سعد.



صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٤	٣	لينذر	ليذر
٤	٤	تميز	يميز
٥	٢٠	آوه	آونة
٥	٢١	العداة	العداء
٧	٦	المهضوومين	المهضومين
٧	٢٠	الغاوبن	الغاوين
٨	١٦	ويخنفون	ويخنقون
١٠	١٠	قترة	فترة
١١	٧	ع, القلوك	على القلوب
١٤	١٤	لمارك	المعارك
١٥	٨	اذا	اذ
١٦	١٣	١٩٣٠	١٩٣٤
٢٤	١٥	أو خطأنا	أو أخطأنا
٣٠	٧	وخداعة	وخداعه
٣٦	٩	بذغ	بزغ
٣٧	٢	بخيع	بجميع
٤٦	٢١	أو قواعد	أم قواعد
٤٩	١٨	أصلب عود	أصلب عوداً
٦٨	٤	الورائية	الوراثية
٧٣	١٩	الاشاترك	الاشتراك

فهرست الجزء الاول

من الناحية